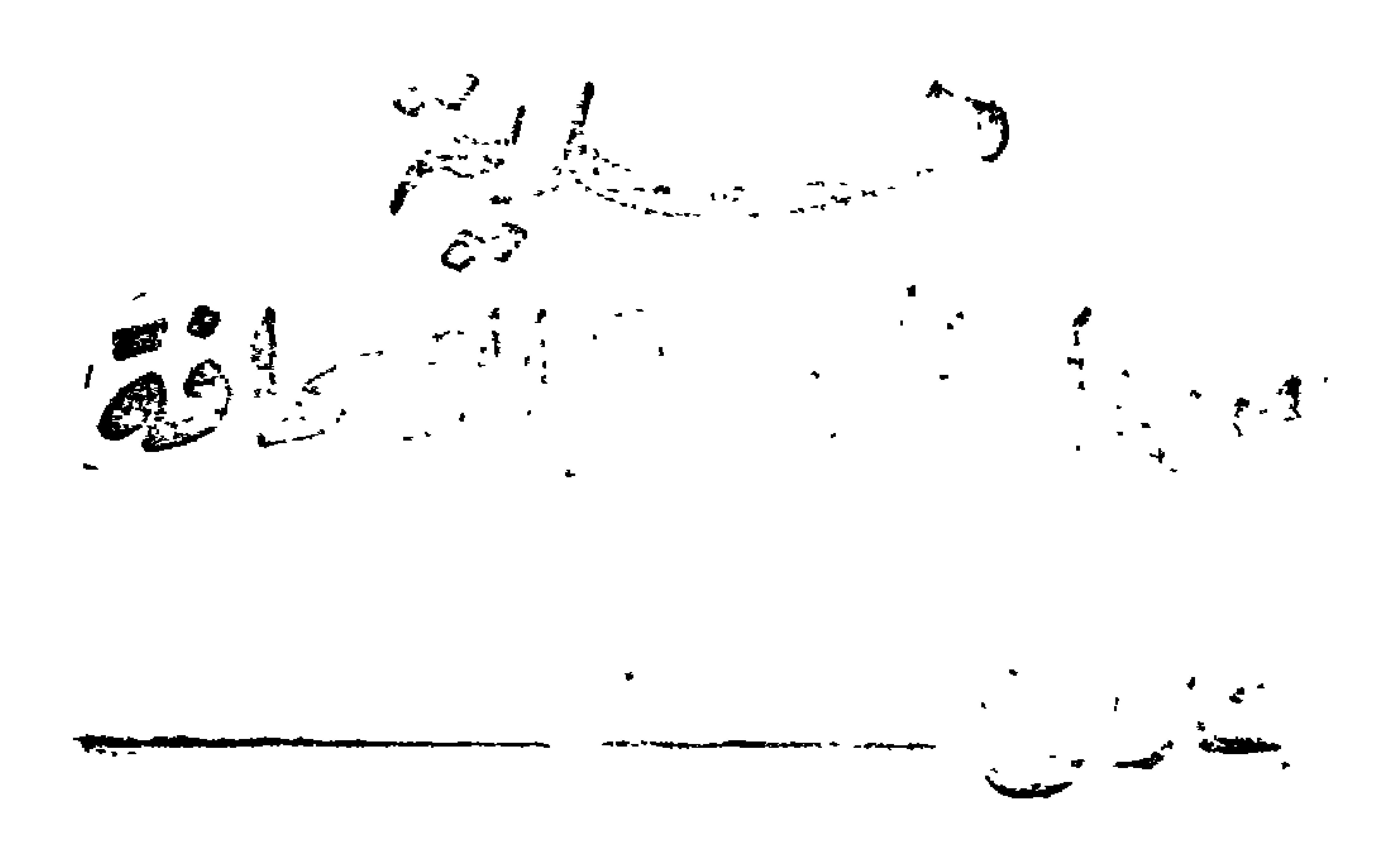

عميد الإمام
كتاب الجمهورية
٢
هل باريس تحترق؟
تأليف: لارى كولنز
دومينيك لاپيير
الجزء الأول



كتاب الجمهورية

العدد الثانى

مايو ١٩٦٩

كتاب الجمهوريّة

يصدر أول كل شهر
عن دار الجمهورية للصحافة

هل باريس تحترق؟

تأليف: لاري كولنز
دومينيك لاپيير

عرض وتلخيص: عميد الإمام



« ان باريس يجب الا تسقط فى يد العدو ..

ولكن اذا حدث ذلك ، فيجب الا يجد فيها شيئا

غير أكوام من الحطام » !

كان هذا هو الأمر الرهيب الذى أصدره أدولف هتلر الى رئيس أركان حربه وسائر أعضاء هيئة القيادة العليا للقوات الألمانيــــة المسلحة يوم الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤٤.

وقد أبلغ هذا الأمر على وجه السرعة من مقر القيادة العليا لهتلــر فى بروسيا الشرقية الى قائد منطقة باريس الكبرى ، كما أرسلت صور منه الى القائد العام للجيوش الألمانية فى الغرب والى قواد كافة الجيوش والفيالق والفرق الألمانية التابعة له .

وكان من المحتم أن يتم تنفيذ حكم الاعدام الذى أصدره هتلر ضد أجمل عواصم الدنيــا وأبهجها .. ولم يكن هناك مفــر من أن يحل الدمار الشامل بباريس العتيدة ، بكل ماتمثله من تراث حضــارى عريق وبكل ماتحتوى عليه من تحف وكنوز وآثار ..

ولكن القدر أراد غير ما أراده هتلر .. فلم يعم الخراب العاصمة الســــاحرة ، ولم يجثم الظلام الشــامل فوق مدينــة النور ـ كما يسمونها ـ وفقا لما أراد الطاغية المجنون .

وكانت نجاة باريس من المصير الكئيب الذى أعده لها هتلر - والذى كانت جميع الظروف تؤكد أنه لامهرب لها منه - أشبه بالمعجزة .

كما كانت الأيام التى تلت صدور أمر هتلر بتحويل باريس الى أطلال - والتى سبقته أيضا - أياما حاسمة فى تاريخ العاصمة الفرنسية وفى تاريخ الحرب العالمية الثانية كلها .

وهذا الكتاب هو سجل شائق مثير لتلك الايام المتخمة بالاحداث الجسام ..

وقد استمد عنوانه « هل باريس تحترق ؟ » من سؤال عصبى وجهه هتلر الى رئيس أركان حربه الجنرال - أوبرشت (أى الفريق الأول) الفريد يودل ، ليتأكد من انه قد بدأ بالفعل تنفيذ الأمر الذى كان قد أصدره بعدم ترك باريس للحلفاء الا بعد أن تكون قد التهمتها النيران .

والكتاب يرسم صورة واقعية حية شاملة للأيام التى صمم هتلر خلالها على أن يحتفظ بباريس بأى ثمن ، والتى صمم خلالها أيضا على أن يحول باريس الى أكوام من الحطام والرماد قبل أن يتركها لأعدائه ، فى حالة عجزه عن الاحتفاظ بها ، وكذلك للايام التى تم فيها تحرير العاصمة الفرنسية من قبضته المجنونة ، وانقاذها من الهلاك المحقق الذى أعده لها .

وهو يقدم هذه الصورة الشاملة النابضة بالحياة ليس فقط من خلال الوقائع والاحداث التاريخية ، ولكن كذلك من خلال التجارب الشخصية لمجموعة ضخمة من الرجال والنساء الذين عاشوا تطورات تلك الأيام المثيرة ، سواء فى باريس أو خارجها ، وسواء كأبطال تصدروا مسرح الاحداث وتسلطت الأضواء عليهم ، أو كأفراد مغمورين قابعين فى الظلام بعيدا عن الانوار .

فالكتاب يتـــابع بدقة ويومـا بيوم ماجـرى خـلال تلك الفترة الحاسمة ، في باريس نفسها ، وفي مقر القيــادة العليـا لهتلـر ، وكذلك فى مقر القيادة العليا للحلفاء .. وفى مكان آخر كانت له صلة بالتجربة الفذة التى تعرضت لها باريس آنذاك .

ومثلما ينقل لنا أفعال وأقوال وتحركات وانفعالات هتلر وديجول وآيزنهاور وقائد منطقة باريس الألمانى وسائر قواد ألمانيا وفرنسـا والولايات المتحدة الأمريكية وضابط المخابرات العسكرية الألمانيـة الكبير الذى كان فى الوقت نفسه عميلا للحلفاء ـ فهو ينقل لنا قصص عشرات من الناس العاديين الذين لعبت محنة باريس ومعركتها دورا رئيسيا فى حياتهم وشحنتها بأعنف الانفعالات والأحداث .

وقد كانت باريس فى شهر أغسطس من عام ١٩٤٤ ، تمثـل أشياء مختلفة بالنسبة للذين كانوا يولونها اهتمامهم ، سواء كانوا من المشاهير والقادة أو من عامة الناس .

■ فبالنسبة لدكتاتور المانيا النازية **ادولف هتلر** ، كانت باريس تمثل فى ذلك الوقت الرمز المتبقى الأخير لأحلامه المتطلعة الى احتلال العالم ، علاوة على كونها المفتاح الاستراتيجى للسيطرة على فرنسا .. ولذلك أصر على ضرورة الدفاع عنها حتى آخر جندى المانى وآخر رصاصة ، وعلى ضرورة عدم السماح للحلفـاء بالاسـتيلاء عليها الا بعد أن تتحول الى أنقاض .

■ وبالنسبة للجنرال **شارل ديجول** كانت باريس هى المحور الذى يوشك مصير بلاده أن يدور حوله ، وكذلك مستقبله السياسى هو شخصيا .. ولذلك صمم على ضرورة أن يحرر الحلفاء باريس ، وأن تستقر حكومته هو فيها ، قبل أن يتمكن الزعماء الشيوعيون لحركة المقاومة من السيطرة عليها عن طريق الثورة المسلحة ..

● وبالنسبة للجنرال **دوايت آيزنهاور** كانت باريس تمثل عبئـا يجب تحاشيه ، فاستخلاصها من محتليها الألمان كان سوف يفرض

عليه تحويل جزء كبير من المواد التموينية ومن الوقود ومن العتاد الحربى اليها ، فى حين كانت جيوشه فى أمس الحاجه الى هذه المواد .. ولذلك كان مصمما على تأجيل تحرير العاصمه الفرنسية وأصدر تعليمات حازمة الى زعماء حركة المقاومه الفرنسيه بعدم السماح بقيام ثورة مسلحة فى باريس الا بعد الحصول على موافقته.

■ وبالنسبة للكولونيل « **رول تانجى** » القائد الشيوعى لحركة المقاومة الفرنسية فى باريس .. كان الاستيلاء على باريس يستحق سقوط مائتى ألف من القتلى ، بشرط ان يتم تحرير العاصمة قبل أن يدخلها جندى نظامى واحد من جنود الحلفاء .

● وبالنسبه للجنرال **ديتريش فون شولتيتز**، القائد الذى اختاره هتلر بنفسه ليتولى الدفاع المستميت عن العاصمة الفرنسيه كانت باريس مهمة أخرى عليه أن يقوم بها وفقا لتقاليد الانضباط البروسية التى يلتزم بها . وقد قال لدبلوماسى يمثل احدى الدول المحايدة : « منذ سباستبول ، اصبح مصيرى هو أن أغطى انسحاب جيوشنا وأن أدمر المدن التى تتركها وراءها » !

وبالنسبة للجندى **بول لندريو** كانت باريس هى البيت الذى غادره ذات مساء فى سنة ١٩٤٠ وهو يقول لزوجته أنه خارج لمدة عشر دقائق لشراء علبة سجائر .. وقد اصبحت الآن النهايه المبتغاة لزحف « صليبى » قطع خلاله ١٨٠٠ ميل عبر أفريقيا وأوربا مع قوات فرنسا الحرة التى يقودها الجنرال فيلب لكلير .

● وبالنسبة للفتاة الجميلة **انتوانيت شاربونييه** كانت باريس « عالما من القوة والجمال والرجولة » خلال سنوات الاحتلال التى قضتها برفقة صديقها الضابط الالمانى الوسيم هانز فيرنر ؛ وقد أصبح تحريرها الان يعنى الفضيحة والتشهير و « نهاية كل شيء ».

● وبالنسبة **لبيير ليفوشو** أحد المساجين السياسيين الذين كان يضمهم أحد سجون الجستابو والذين كانوا ينتظرون ترحيلهم

الى معسكرات الاعتقال فى المانيا ٠٠ كانت باريس أمنية لا يسمح لنفسه بأن يجعلها تطوف بمخيلته ، ولا حتى فى الأحلام !

ومن خلال النظرات المختلفة لهؤلاء الناس ولكثيرين جدا غيرهم ، الى باريس ٠٠ ومن خلال مواقفهم فى أثناء محنتها ٠٠ ينسج لنا الكتاب لوحته الحية الشاملة التى تصور الايام الحاسمة التى مرت بها باريس فى صيف عام ١٩٤٤

وقد اشترك فى تأليف هذا الكتاب اثنان من الصحفيين أحدهما أمريكى والآخر فرنسى ٠

والأمريكى هو **لارى كولنز** الذى عمل مدير المكتب مجلة « نيوزويك » فى باريس ، وقضى أربع سنوات قبل ذلك كمراسل اجنبى فى الشرق الاوسط وشمال أفريقيا ٠٠

أما الفرنسى فهو **دومينيك لابيير** الذى كان من محررى مجلة « بارى ــ ماتش » البارزين ، وعمل مراسلا لها فى أوربا وكوريا وروسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ٠ وقد عاش فترة الاحتلال الالمانى وأيام التحرير فى باريس ٠٠

وقد استغرق اعدادهما للكتاب حوالى ثلاثة أعوام ، وتعاون معهما فى جمع مادته عدد كبير من المساعدين ٠٠ من بينهم صحفية من أصل لبنانى تعمل فى باريس ، اسمها « **مى جنبلاط** »

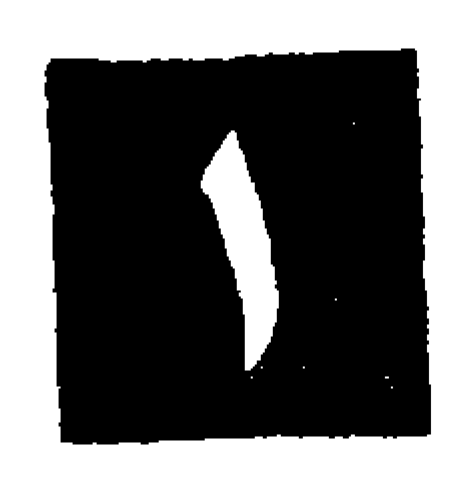
وقد أتيح لهما أن يطلعا على كافة الوثائق الرسمية المتعلقة بالفترة التى يتناولها الكتاب سواء فى باريس أو بون أو واشنطون أو لندن

وقد استمد المؤلفان كثيرا من المعلومات أيضا من عدد من كبار الضباط الالمان الذين كانوا أعضاء فى هيئة أركان حرب هتلر ، وفى قيادة الجيوش الألمانية فى غرب أوربا ٠٠

واجتمع المؤلفان أيضا بالجنرال آيزنهاور الذى كان القائد العام لقوات الحلفاء فى أوربا الغربية ، وبكبار القواد العسكريين الامريكيين ٠٠ وكذلك بكبار قوادفرنسا وقادة حركة المقاومة السرية فى أثناء الاحتلال ، واستعانا بذكرياتهم جميعا فى تكوين الصورة الشاملة الأمينة الشائقة التى أعداها ٠

الجزء الأول

التهديد



لم يكن يتاخر عن موعده ابدا . وكل مساء عندما كان الالمانى يصل حاملا سلاحه « الماوزر » القديم ، والعلبة الجلدية المتآكلة التى تحتوى على منظاره المكبر ، والوعاء الذى يضع فيه عشاءه .. كان سكان قرية « مى - ان - مولتيان » يعرفون ان الساعة قد أصبحت السادسة . وعندما كان يعبر ساحة القرية المرصوفة بالحجارة ، كانت اجراس كنيسة « سيدة الصعود » التى يعود تاريخ بنائها الى القرن الثانى عشر تبدأ دائما فى أعلان حلول موعد صلاة المساء من برجها المشرف على اسطحة منازل القرية من فوق موقع الكنيسة العالى على قمة تل مجاور لنهر أورك ، على بعد ٣٧ ميلا فى الاتجاه الشمالى الشرقى من باريس .

وكان الالمانى - وهو عريف فى السلاح الجوى الالمانى بدأ الشيب يخط رأسه - يتجه دائما الى مصدر ذلك الرنين الهادىء مباشرة . وعند باب الكنيسة كان يخلع لباس رأسه قبل ان يدخل ، ثم يأخذ فى ارتقاء السلالم المستديرة الضيقة المؤدية الى برج اجراس الكنيسة فى خطوات بطيئة . هناك عند القمة كانت توجد منضدة ، ومصباح يعمل بالجاز ، ومقعد .. وهى أدوات مصادرة من الكنيسة التى يعلوها البرج . وعلى المنضدة وضعت بعناية خريطة من خرائط هيئة أركان الحرب الألمانية ، ودفتر ،

ونتيجة ، وجهاز تليفون ميدان لونه مزيج من الاخضر والرمادى .
فبرج كنيسة « سيدة الصعود » كان نقطة مراقبة تابعة للسلاح الجوى الألمانى .

من هنا ، كان فى استطاعة الالمانى أن يستعرض المنطقة بأسرها من خلال منظاره المكبر ، وان يجيل بصره عبر منطقة تمتد مسافة ١٣ ميلا .

بعد ساعات قليلة سوف يخيم الظلام على المنظر الهادىء الممتد تحت عدستى منظار العريف .. وعندئذ تبدأ نوبة سهر جديدة بالنسبة له هى نوبته الثامنة والخمسون منذ الاحتلال .
فيظل يحدق فى الأفق ، ويطل فى الظلال الى أن ينتهى الليل .. ومع خيوط الفجر الأولى ، يرفع سماعة تليفونه ، ويبلغ تقريره الى قيادة المنطقة الجوية فى « سواسون » .

وقد كانت بلاغات العريف واحدة لا تتغير خلال الأيام الاثنى عشر التى انقضت على اكتمال البدر الاخير ، وهى : « لا شىء للابلاغ عنه من قطاعى » .

وكان الألمانى يعرف أن الحلفاء يسقطون مظلاتهم الى حركة المقاومة السرية دائما فى ضوء البدر المكتمل .. ولن يكتمل البدر ثانية ــ كما تنبئه النتيجة الموضوعة فوق منضدته ــ الا بعد ست عشرة ليلة ، اى ليس قبل مساء الثامن عشر من اغسطس .

لذلك كان واثقا من انه لن يحدث شىء فى هذه الليلة فى هذا الجيب الصغير من فرنسا المحتلة المعهود اليه بالسهر عليه ، وكان متأكدا من انه يستطيع فى هذه الليلة ــ ليلة الثانى من اغسطس سنة ١٩٤٤ ــ أن يضع رأسه فوق المنضدة التى تهتز تحت ثقله وان يغفو وهو مطمئن .

لكن الالمانى كان مخطئا .

فبينما كان مستغرقا فى النوم ، وعلى بعد ميلين اثنين منه وفى حقل مبتل مزروع بالقمح ، كان هناك رجلان وامرأة بوزعون انفسهم بحيث يشكلون أطراف مثلث .. وهو الشكل الذى تحدده المقاومة السرية للاماكن التى تتلقى فيها ما يلقى عليها بواسطة المظلات .

وكان كل من الأشخاص الثلاثة يحمل مصباحا يعمل بالبطارية ، مغلفا فى ماسورة من الصفيح . وكانت هذه المصابيح المحاطة بالمواسير عندما توجه الى أعلى ، تطلق عامودا نحيلا من الضوء ، لا يمكن رؤيته الا من فوق .

ووقف الرجلان والمراة كل فى مكانه ينتظر .. وبعد منتصف الليل بفترة قصيرة ، سمعوا الصوت الذى كانوا ينتظرونه ، وهو الهدير المنخفض لمحركات قاذفة قنابل من طراز « هاليفاكس » أبطىء سيرها وخنق صوت محركاتها أثناء تحليقها الهادىء فوق وادى نهر أورك .. فأضاءوا أنوار مصابيحهم .

ولمح قائد الطائرة الذى كان يحدق نظره فى وادى النهر المظلم ، أنوار اطراف المثلث الخافتة التى كانت تنطفىء وتضىء .. ضغط على زر أمامه اطفأ النور الأحمر الذى كان مضاء داخل عنبر طائرته واضاء نورا أخضر بدلا منه .

عندئذ أمسك رجل كان ينتظر فى العنبر بجانبى باب العنبر الصغير المفتوح ، والقى بنفسه فى ظلام الليل .

وبينما كان يهبط فى صمت نحو الأرض الفرنسية ، كان طالب الطب الشاب «الان بيربيزا» يحسن حول وسطه شد الحزام المتلف عليه الذى يحتوى على خمسة ملايين من الفرنكات . ولكن تسليم

هذا المبلغ الكبير لم يكن هو السبب الذى قفز من اجله فى ظلام تلك الليلة من ليالى شهر اغسطس .

ففى داخل نعل فردة حذاء « الان بيربيزا » اليسرى ، كانت قد وضعت قطعة صغيرة من الحرير فى سمك اجنحة الحشرات الطائرة ، طبعت عليها ثمانى عشرة مجموعة من رموز الشفرة .

وكانت الرسالة المطبوعة على تلك القطعة الصغيرة من الحرير ، هامة وعاجلة فى نظر رؤساء « بيربيزا » فى لندن ، الى حد دفعهم لأن يخالفوا جميع القواعد التى يسيرون عليها ، وان يبعثوا به ليهبط فى ظلام تلك الليلة لكى يتولى تسليمها .

ولم يكن « بيربيزا » يعرف ما تتضمنه الرسالة التى يحملها ، وانما كان كل ما يعرفه هو ان عليه ان يوصلها فى أسرع وقت ممكن الى رئيس المخابرات السرية البريطانية فى فرنسا ، الذى يعرف بالاسم المستعار « جاد اميكول » . وكان مقره فى باريس .

كانت الساعة قد بلغت السابعة صباحا عندما نفض« بيربيزا » عنه آخر عيدان التبن التى علقت به من كوم التين الذى قضى فوقه الليلة مختبئا . واختار ان يصل الى باريس من أسرع الطرق المتاحة له ، وهو أن يطلب من السيارات المتجهة الى العاصمة حمله فى طريقها .

وكانت اول سيارة مرت به على طريق فرنسا رقم ٣ ، سيارة نقل تابعة للسلاح الجوى الالمانى ، ما كادت تتجاوزه ببضعة أمتار حتى توقفت ، وفى مؤخرتها أربعة جنود الماان على رءوسهم خوذاتهم الحديدية ، وقفوا عند سور مؤخرة السيارة يحدقون فيه .

ورأى « بيربيزا » باب السيارة يفتح ، وسائقها يشير اليه أن يقترب . فى تلك اللحظة تخيل « بيربيزا » أن حزام النقود الذى يحيط بوسطه يزن مائة رطل .

امعن الألماني النظر اليه ثم سأله بالالمانية :

ـ هل أنت ذاهب الى باريس ؟

فهز طالب الطب الشاب رأسه بالايجاب ، وصعد والدم يكاد يتجمد في عروقه الى المقعد الدافيء بجوار السائق

عندئذ تحرك الالماني بالسيارة .. وفي مقدمتها ، احد عملاء المخابرات الشاب الذي يحمل الرسالة الى رئيس المخابرات البريطانية في فرنسا ، يتأمل الطريق المؤدي الى باريس .

* * *

كانت الراهبات التسع راكعات في ظلال كنيستهن الصغيرة يرددن تسبيحهن الثالث لذلك اليوم ، عندما مزق السكون الذي يغلف ديرهن صوت جرس الباب وهو يرن ثلاث مرات رنينا طويلا تبعتها رنة قصيرة .

عند سماع صوت الرنين نهضت اثنتان منهن على الفور ، وأنهتا صلاتهما برسم علامة الصليب ، وخرجتا . ورنين جرس الباب ثلاث مرات طوال ثم مرة قصيرة بعد ذلك كان يعني للاخت جان رئيسة الراهبات وللاخت جان ماري فباني مساعدتها ،ان باب الدير الذي يحمل رقم ١٢٧ بشارع لاسانتيه يستقبل « زيارة هامة » .

كان الجستابو قد أمضى السنوات الأربع الماضية وهو يفتش في استماتة عن رجل يختبيء في هذا الدير .. فهناك ، وراء غرفة الجلوس في هذا المبنى القديم الخشن المقام عند ملتقى قطعة أرض خالية بالجدران الحجرية العاليه لمستشفى سانت آن للامراض العقلية ، كان يوجد مقر « جاد اميكول » رئيس المخابرات السرية البريطانية في فرنسا المحتلة . وفي حماية تلك الأحجار القديمة ، والشجاعة الهادئة لحفنة من الراهبات ،

استطاع مقره أن يتحدى جميع حمـلات التفتيش التى لم تكن تنقطع ، والتى كان يشنها الجستابو بحثا عنه ·

وكان ذلك الدير هو المكان الذى انعقد فيه فى سنة ١٩٤٣، اجتماع سرى بين الادميرال الالمانى فيلهلم كانارس رئيس المخابرات العسكرية الالمانية الذى أخذ اليه بعد ان عصبت عيناه ، وبين رئيس المخابرات البريطانية السرية فى فرنسا ·

فقد أراد كانارس أن يعرف من تشرشل ما سوف تكون عليه الشروط التى يمكن أن تقوم عليها فيما بعد معـاهدة صلح بين الحلفاء والمانيا بعد أن تكون قد تخلصت من هتلر · بعد ذلك الاجتماع بخمسة عشر يوما وصل الرد من تشرشل · كان ذلك الرد هو ان الشروط هى « استسلام المانيا بلا قيد ولا شرط »

بعد أن مضى عام ونصف عام على هذا الحادث ، تم اعدام كانارس بسبب الدور الذى قام به فى المؤامرة الشهيرة ضد هتلر التى أصبحت تعرف باسم مؤامرة ٢٠ يوليو او مؤامرة الجنرالات .

فتحت الأخت جان الفتحة الصغيرة فى باب الدير الكبير الثقيل ، ورأت أمامها وجه شاب صغير .

قال لها الشـاب :

ـ أسمى « ألان » .. ومعى رسالة للكولونيل .

ففتحت الأخت جان الباب الكبير وخرجت الى العتبة بنفسها لتتأكد من أن الشـاب قد جاء وحده ومن انه لم يتبعه أحد الى الدير .. ثم اومأت له أن يدخل .

وفى غرفة الجلوس وتحت صورة متواضعة للقسيس المغمور الذى أسس نظام رهبنة « عذاب سيدنا المبارك » الذى يتبعه الدير .. خلع « الان بيربيزا» فردة حذائه اليسرى .. وبواسطة سكين أتت بها اليه الأخت جان شق نعل الحذاء واخرج منه قطعة الحرير

الصغيرة التى خاطر من اجلها بحيــاته . ثم ناولها الى العملاق الأزرق العينين الذى بدأ الصلع يزحف الى راسه الجالس فى المقعد المجاور لمقعده .

ونظر الكولونيل كلود أوليفر - الذى كان يحمــل الاسم المستعار « جاد أميكول » - الى الرموز السوداء المطبوعة عليها ، ثم طلب من الأخت جان أن تحضر اليه مفتاح الشفرة الذى يحل بواسطته رموز الرسائل التى يتلقاها .

وكان مفتاح الشــفرة مطبــوعا على منديل فى سمك شــفرة الحلاقة ، مصنوع من نسيج قابل للهضم وقابل لأن يذوب عــلى لسانه فى ثوان اذا ما اضطر الى أن يبلعه .. وكانت الأخت جان تخبئه فى كنيسـة الدير الصغيرة تحت حجر المذبح .

قام أوليفر بتطبيق مفتاح الشفرة على الرسالة التى حملها اليه بيربيزا .

كانت تلك الرسالة تقول ان قياده الحلفاء مصممة على « تخطى باريس وتأخير تحريرها لأطول مدة ممكنة » .

واضافت الرسالة قولها : انه لا يمكن السماح لأى اعتبار بأن يغير هذه الخطط .. وكانت الرسالة تحمل توقيع « جنرال » وهو الاسم المستعار لرئيس المخابرات العام .. كما أنه توقيع لا يوضع الا على الرسائل ذات الأهمية العظمى .

رفع الكولونيل نظره الى بيربيزا .. وصمت برهه ثم قال .
- يا الهى .. هذه كارثة !

٢

بالنسبة للمدينة الممتدة وراء جدران الدير الذى يختبىء فيه « جاد اميكول » كان صباح ذلك اليـوم الدافىء من أيام شهر اغسطس ، هو صباح اليوم الثالث بعد الخمسمائة والألف من أيام الاحتلال الألمانى لها .

وعندما بدأت الساعة تدق معلنة حلول الساعة الثانية عشرة ، بدأ الجندى الالمانى فريتز جوتشولك ـ كما فعل كل يوم خلال الاعوام الأربعة الماضية ـ ومعه الجنود المائتان والتسعة والأربعون الذين تتألف منهم وحدته .. بدأوا مسيرتهم العسكرية اليومية فى شارع « الشانزليزيه » متجهين نحو ميدان « الكونكورد » . وأمامهم كانت تسير فرقة موسيقية عسكرية تعزف على الآلات النحاسية مارش « مجد بروسيا » .

لكن عدد الباريسيين الذين وقفوا على ارصفة ذلك الشارع المهيب يشهدون العرض العسكرى الألمانى اليومى ، كان اقل من قليل .. فقد تعلم أهالى باريس منذ مدة ان يتجنبوا ذلك المنظر المذل المهين .

ولم يكن ذلك العرض العسكرى اليومى الا واحدا من أعمال الاذلال العديدة التى تعين على عاصمة فرنســا أن تتعلم كيف تحتملها منذ الخامس عشر من يونيو سنة ١٩٤٠ . فقد كان المكان الوحيد الذى يستطيع فيه الفرنسى أن يرى علم بلاده فى عرض عام فى باريس هو متحف الجيش بقصر « الانفاليد » حيث كان هذا العلم معروضا فى أحد الصناديق الزجاجية المغلقة .

كان علم المانيا النازية بصليبه المعقوف والوانه الســوداء والبيضاء والحمراء يتحدى المدينة من أعلى النصب الذى كان هو شعارها .. وهو برج ايفل ، كما كان ذلك العلم الذى تتمثل فيه غطرسة المحتل المنتصر يرفرف فوق مئات الفنادق والمبانى العامة والعمارات الخاصة التى صادرها غزاة باريس ، رمزا للحكم الذى استعبد منذ أربع سنوات روح اجمل مدن الدنيا

وعلى طول « البواكى » الرشيقة فى شارع « ريفولى » وحول ميدان « الكونكورد » وأمام قصر « لوكسمبورج » ومقر مجلس النواب ومبنى وزارة الخارجية « الكى دورسى » كانت الأكشاك الخشبية المطلية بالأسود والأبيض والأحمر التى يستخدمها جنود الحراسة الألمان تحول بين الباريسيين وارصفــة مدينتهم .

أمام المبنى رقم ٧٤ بشارع « فوش » والمبنى رقم ٩ بشارع « السوسى » وكثير غيرهما من المبانى ، كان رجال آخرون يتولون الحراسة . كانوا يضعون على ياقات ستراتهم العسكرية الشعارات الفضية لفرق الصاعقة الألمانية التى تمثل وميض البرق ، وكانوا يحرسون مكاتب الجستابو .

ولم يكن جيرانهم ينامون نوما هادئا دائما .. فكثيرا ما كان يصعب على محتلى تلك المبانى أن يكتموا الصرخات التى كانت تنطلق منها فى كل ليلة تقريبا .

وكان الالمان قد غيروا حتى وجه المدينة . فحوالى المائتين من اجمل تماثيلها النحاسيّة كانت قد انتزعت من اماكنها وشحنت الى المانيا لصهرها وتحويلها الى اغلفة لقنابل المدافع .

وكان مهندسو المنظمة العمالية « تودت » الموالية للالمان قد استبدلوا بتلك التماثيل زخارف أخرى تتفق اكثر منها مع مزاجهم ولربما كانت الزخارف الجديدة اقل جمالا من تلك التى حلت محلها، ولكنها كانت ـ قطعا ـ اكثر فاعلية منها . ففى ارصفة باريس كانوا قد غرسوا حوالي مائة مركز محصن من الاسمنت المسلح . وكانت اجزاؤها العليا التى ترتفع فوق الارصفة تبدو كالبثور القبيحة على وجه المدينة الجميل

وكان حشد متشابك من اللافتات الخشبية البيضاء قد نبت كالاشجار الطفيلية فى ميدان الاوبرا امام مقاعد مقهى « كافيه دى لابيه » وكانت الاشارات والكلمات الالمانية السوداء التى تحملها تلك اللافتات قد وضعت لارشاد السائقين الالمان الى اهداف تتناقض اسماؤها وطبيعتها مع كل ما هو فرنسي ، مثل : مقر الحاكم العسكرى لفرنسا وقيادة « اللوفتفافه » او السلاح الجوى الالماني ، الى آخره . ولكن فى ذلك الصيف كانت قد اضيفت لافتة جديدة اليها ، اصبحت كلماتها تثير الأمل والاستبشار فى نفوس الباريسيين الذين يمرون بها . كانت تلك اللافتة تحمل كلمات « الى جبهة نورماندى » .

ولم يكن قد حدث من قبل ان اقفرت شوارع باريس على هذه الصورة . لم يكن هناك سيارات اوتوبيس ، وسيارات الاجرة كانت قد اختفت منذ سنة ١٩٤٠ . أما السائقون القلائل الذين اتاح لهم

حظهم الطيب – أو تورطهم العميق فى التعاون مع المحتلين – الحصول على رخصة المانية تسمح لهم بتسيير سياراتهم ، فقد كانوا يستخدمون الحطب كوقود للسيارات . وكانوا يحرقون الحطب الذى يوفر لسياراتهم الطاقة فى « غلايات غسيل » ملصقة بمقدماتها .

وكانت الدراجات والخيول هى سيدة الشوارع . بل كانت الدراجات قد حلت مكان سيارات الأجرة . فبعض سائقى التاكسيات كانوا قد حولوا سياراتهم الى « حناطير » وحولوا أنفسهم الى خيول ، وذلك عن طريق قص سياراتهم من النصف تاركين أجزاءها الخلفية فقط مرتكزة على عجلتى المؤخرة . وأصبحت هذه المركبات تسمى « فيلو – تاكسى » أى التاكسيات التى تسير بالدراجات ، اذ كان أصحابها يجرونها وهم راكبون دراجاتهم .

ومن أجل الخدمة السريعة ، كانت هناك تاكسيات « سوبر فيلو – تاكسى » يجرها أربعة من راكبى الدراجات . اما أكثرها سرعة فقد كان يجرها مجموعة من الرياضيين السابقين الذين كانوا فى السابق من ابطال « التور دى فرانس » أى « سباق الدراجات حول فرنسا » الشهير . وكانت اغلب هذه المركبات التى يحركها الآدميون تحمل اسماء لها طليت باللون الأسود على ظهرها ، وكان أكثر الأسماء شيوعا بينها هو « العصر الحديث » .

اما « المترو » فكان يتوقف عن السير فيما بين الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر فى أيام العمل ، وكان يتوقف تماما فى أيام العطلة . وفى المساء كان عمله ينتهى فى الحادية عشرة ، وكان نظام منع التجول يبدأ عند منتصف الليل .

وعندما كان الالمان يضبطون باريسيا فى الشوارع بعد حلول موعد منع التجول ، كانوا يأخذونه الى مقر رئاسة الشرطة العسكرية

حيث يقضي الليلة في مسح احذيتهم . ولكن لو كان افراد المقاومة السرية قد اطلقوا النار على جندى المانى فى تلك الليلة ، فان عقوبة من يفوته آخر قطار « مترو » تصبح اكثر صرامة ، وقد تكون مواجهة فرقة ضرب نار . فقد كان الالمان يحبـون ان يختاروا الضحايا الذين يعدمونهم انتقاما لرجالهم القتلى ، من بين من يخرقون نظام منع التجول .

وكانت مقاهى باريس تمتنع عن تقديم الخمور ثلاثة أيام فى الأسبوع وتقدم بدلا منها قهوة صناعية كريهة اطلق عليهـا اسم « القهوة الوطنية » وكانت تصنع من ثمار شـجر البلوط ومن الفاصوليا الجافة .

وكانت باريس مدينة بلا جاز تقريبـا وبلا كهرباء . وكانت ربات البيوت فيها قد تعلمن الطهو فوق مجموعة من الصفائح تتسع كل منها لعشرة جالونات ملتحمة ببعضهـا ، وتعـرف باسـم « سخانات ٤٤ « . وكن يستخدمن كوقود أوراق الجرائد بعد ان يحولنها الى كرات صغيرة جدا ويرششنها بالماء . فبهذه الطريقة كانت تلك الأوراق تشتعل ببطء اكثر .

وقد علق أحد المحال التجارية اعلانا ذكر فيه أن جريده تتألف من ست صفحات يمكنها أن تجعل لترا من الماء يغلى خلال اثنتى عشرة دقيقة .

ولكن قبل كل شيء ، كانت باريس مدينة جائعة . وقد تحولت الى أكبر قرية ريفية فى الدنيا . ففى كل صباح كانت تستيقظ على أصوات صياح الدواجن التى أصبحت تملأ أسطحة بيوتها وأحواشها وبدروماتها وأحيـانا حجرات نومها وكل مكان آخر تستطيع أن تعثر عليه ملايين المدينة الجائعة لتربيها فيه . كما كان أطفال باريس وسيداتها المسنات يتسللون من بيوتها كل صباح ليقطعوا من حدائقها العامة بعض الحشائش المحظور قطعها ليطعموا بها الأرانب التى يحتفظون بها فى أحواض الاستحمام .

في شهر اغسطس ذاك كان الباريسيون يحصلون بموجب بطاقات التموين التى صرفت لهم ، على بيضتين وربع رطل من زيت الطهو وكمية اقل من المسلى الصناعى . أما كمية اللحم التى كانت توزع عليهم فقد كانت ضئيلة الى حد كان يمكن معه - كما كانت تقول احدى النكت الشائعة - لفها فى تذكرة المترو .. بشرط ألا تكون التذكرة قد استعملت . فلو كان محصل المترو قد خرم التذكرة فمن المحتمل ان تسقط قطعة اللحم من الخرم !

أما قوام غذاء معظم الباريسيين ، فقد كان نوعا منحطا من القرنبيط كان مخصصا قبل ذلك لاطعام المواشى .

بالنسبة لمن كان لديهم نقود ، كانت هناك السوق السوداء ، وكانت الوجبة الغذائية لأربعة اشخاص تتكلف فيها ٦٢٥٠ فرنكا .. وقد كان المرتب الشهرى للسكرتيرة فى ذلك الصيف هو ٢٥٠٠ فرنك .

وكان ثمن البيضة الواحدة أربعين سنتا ، أى حوالى نصف الدولار وثمن رطل الزبدة عشرة دولارات .

أما الذين لم تكن لديهم نقود ، فكان الطريق الوحيد أمامهم لتعويض مالا توفره لهم بطاقات التموين هو ركوب الدراجات لمسافات تتراوح بين العشرين والأربعين ميلا والبحث فى الأرياف عن فلاح لديه دجاجة أو حزمة خضراوات يريد بيعها

وكانت ملصقات حكومة فيشى التى تحث العمال الفرنسيين على « الاتحاد مع اخوانهم الألمان » أو على الانضمام الى « فرقة مقاومة البلشفية » تملأ جدران باريس . وكانت الصفحات الأولى من الجرائد المتعاونة مع الألمان تعلن أن « العمل فى ألمانيا ليس ترحيلا » وتذكر نقلا عن برلين ان « هيئة أركان الحرب الالمانية لم تكن فى يوم من الأيام ممتلئة ثقة فى المستقبل كما هى الآن » . ولكن صفحاتها

الداخلية كانت تحمل اعلانات متوارية صغيرة عن محلات « مستعدة لنقل الأثاثات لمسافات بعيدة بواسطة الخيل » •

ولكن مع هذا كله ، فان باريس كانت قد تمكنت بطريقة ما من الاحتفاظ بقلبها « بهيجا ومرحا » على حد تعبير الكاتب الأمريكى اليوت بول . نساؤها الجميلات كن يبدون أكثر جمالا مما كن فى أى وقت . وكانت أربعة أعوام من الغذاء الناقص ومن ركوب الدراجات يوميا قد قللت من طراوة أجسامهن وجعلت سيقانهن نحيفة • وفي ذلك الصيف كن يغلفن شعورهم بغلالات ، أو يرتدين قبعات واسعة موشاة بالزهور الصناعية تبدو وكأنها من مخلفات عصر مضى أوكأنها أخذت من لوحات الرسام رينوار •

وفى شهر يوليو ، كانت بيوت الازياء الشهيرة •• بيوت «مادلين ديروش » و « لوسيان ليلونج » و « جاك فات » قد أعلنت عن « المودة العسكرية » التى كان قوامها الأكتاف العريضة والأحزمة العريضة أيضا و « الجونلات » القصيرة التى جعلت قصيرة توفيرا للاقمشة ، وكانت بعض الأقمشة فى ذلك الوقت مصنوعة من خيوط خشبية ، وكان من النكت الشائعة فى باريس انه عندما ينزل المطر ، فان ملابس السيدات تطلق الاغصان □

وفى الليل كانت الباريسيات يرتدين أحذية غليظة ذات نعال من الخشب كانت تطرقع بصوت عال فوق الارصفة فى اثناء سيرهن ، وكن قد تعلمن أن يخلعنها وأن يعدن الى بيوتهن حافيات اذا تأخرن عن موعد حظر التجول . فبذلك ما كانت دوريات الألمان التى تطوف بالمدينة لتسمع غير وقع أحذية اعضائها فى الطرقات •

فى ذلك الصيف ، كانت باريس قد لزمت مكانها ، فبسبب الحرب لم يتمكن أحد من القيام برحلة الصيف التقليدية الى الأرياف وكانت المدارس مفتوحة • وكان آلاف من الناس يأخذون حمامات

شمس على ضفاف نهر السين ، وفي ذلك الصيف أصبح ذلك النهر المتليء بالطين أكبر حمام سباحة في الدنيا .

بالنسبة للمتعاونين مع الألمان ولأصدقائهم الالمان ، ولاغنياء الحرب الذين جمعوا ثرواتهم من السوق السوداء ، كان لا يزال يوجد شمبانيا وكافيار في مطعم مكسيم وفي ملهى الليدو وفي عدد من الكباريهات مثل « شهرزاد » و « سوزى سوليدور » . وفي ذلك الأسبوع فاز فرنسي حالفه الحظ كانت معه تذكرة تحمل رقم ١٧٤١٨٤ بالجائزة الأولى في اليانصيب الوطنى فحصل على ستة ملايين من الفرنكات ــ أى حوالى ٣٤٫٢٠٠ دولار .

وفي أيام السبت والأحد والاثنين كان موسم السباق يستمر في « لونشان » و « أوتاى » . كانت الجياد نحيلة ولكن المقاعد كانت تمتلىء بالناس . وعن مدينة الملاهى « لونابارك » كان يصدر اعلان مشجع يقول : « لا تحزن على ضياع اصطيافك . بتسع وتسعين دوسة على بدالات دراجتك ، يمكنك أن تجد الشمس الساطعة والهواء المنعش هنا » .

وكان ايف مونتان وآديث بياف يغنيان معافى ملهى « مولان روج » وعندما استعرض سيرج ليفار موسم الباليه المنصرم ، امتدح اثنين من الراقصين الناشئين هما زيزى جانمير ورولان بتى .

أما دور السينما فكانت تشغل آلات العرض فيها بواسطة محركات يزودها بالطاقة دوران أقراص الدراجات . كانت « جومون بالاس » أكبر دور السينما في باريس قد توصلت الى ان قيام أربعة رجال بادارة أقراص الدراجات بواسطة البدالات بسرعة ١٣ ميلا في الساعة لمدة ست ساعات ، يمكنه ان يخزن كمية من الكهرباء تكفى لعرضين كاملين ، وفي خارجها ، كانت تلك الدار تعلن أنه ملحق بها مكان لوقوف الدراجات يتسع لثلاثمائة دراجة .. استعماله مباح مجانا لحاملى تذاكر دخول السينما !

وكانت المسارح تفتح ابوابها في الثالثة بعد الظهر وتغلقها عند الغروب ، وكانت تمتلىء دائما بالرواد . وكانت اكشاك المدينة المستديرة الخضراء تحمل اعلانات عن اكثر من عشرين مسرحية مختلفة . وكان مسرح « فييه كولومبييه » يقدم مسرحية جان بول سارتر « جلسة سرية » وعلى بعد بضعة مبان فقط من المسرح كان المؤلف يختبىء في غرفة فوق احد الأسطحة ويكتب منشورات لحركة المقاومة السرية .

ولكن قبل كل شيء اخر ، كان هناك عامل في ذلك الصيف الذي لا ينسى من عام ١٩٤٤ ، يستبقي الناس في بيوتهم كل مساء خلال فترة نصف الساعة القصيرة التي كان التيار الكهربائي يجري خلالها في باريس . عندئذ كانت المدينة بأسرها تصمت وتلصق أذانها باجهزة الراديو لتسمع عبر اصوات التشويش الألمانية صوت الاذاعة البريطانية الممنوع .

في ذلك المساء ، مساء الثالث من أغسطس سنة ١٩٤٤ ، وفي ظل الجمال الذي لا يبارى لساعة الغروب في باريس ، سمع أهل المدينة لأول مرة بأمر ، سرعان ما أصبح بالنسبة لهم بمثابة الكابوس المخيف

وارسو في ذلك المساء كانت طعمة للنيران . فبينما كان محرروها الروس قد توقفوا على بعد مسيرة قصيرة من أبوابها ، كانت الحامية الألمانية فيها قد شرعت في قمع الثورة المسلحة المتعجلة التي أشعلتها فيها حركة المقاومة ، بأقصى القسوة والعنف . وعندما أتم الألمان عملهم ، كان مائتا ألف بولوني قد قتلوا وكانت وارسو قد أصبحت كوما حزينا من الأنقاض السوداء التي حرقتها النيران .

كل باريسي كان ينظر من نافذته ذلك المساء ، كان يستطيع أن يتأمل أحدى معجزات الحرب : باريس كانت سليمة تماما ، نوتردام سان شابيل ، اللوفر ، الساكري كير ، قوس النصر .. جميع التحف والآثار التي لا مثيل لها التي جعلت تلك المدينة منارا

للانسان المتحضر ، أفلتت حتى الآن من أن تصاب بأى خدش خلال خمس سنوات من أعنف حرب مدمرة عرفها التاريخ . والآن ، اخيرا بدأت ساعة تحرير باريس تقترب . ولكن المصير الذى كان قد بدأ يحيل وارسو الى انقاض فى ذلك المساء .. المصير الذى نجت منه باريس على ذلك النحو المذهل حتى ذلك الوقت .. ذلك المصير سوف يعلق عما قريب فوق رأسها هى .. هى .. اجمل مدن الأرض .

فباريس كانت هى المحور الذى تدور حوله فرنسا كلها . فيها كانت تصب جميع طرق فرنسا الرئيسية وسككها الحديديةوقنواتها وكانت هى القلب الذى تحكم منه فرنسا بأسرها .

سكانها الذين كان يبلغ عددهم ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة وملايين عديدة أخرى حول العالم ، ربما لايشغل بالهم الا سلامة الكنوز المحفوظة فيها للبشرية المتحضرة بأجمعها . ولكن لغيرهم من الرجال الذين كانت تبعدهم عنها فى تلك الليلة آلاف الأميال كانت باريس قد أصبحت شيئا آخر . كانت باريس قد اصبحت بالنسبه لهم هدفا عسكريا .



بالنسبة للامريكى الذى سوف يحررها ، كانت باريس معضلة محيرة .

واخيرا اتخذ الجنرال دوايت آيزنهاور فى مقر قيادته المخبأ فى غابة تغمرها الأمطار على بعد ميلين من ساحل « جانفيل » فى مقاطعة نورماندى . والذى كان عبارة عن قافلة من المركبات .. اتخذ قرارا لم يكن هو نفسه متحمسا له . وربما كان ذلك القرار هو اخطر قرار اتخذه منذ غزو جيوشه للساحل الأوربى .

قرر تأجيل تحرير باريس لأطول مدة ممكنة ، واختار أن يطوق المدينة ويتخطاها ، وقدر القائد الأعلى لجيوش الحلفاء فى أوربا أن باريس لن تحرر قبل حوالى الشهرين .. قبل منتصف سبتمبر على أحسن الفروض .

ولم يكن آيزنهاور قد اتخذ هذا القرار بلا ترو ، فقد كان يعلم مثل غيره التأثير العاطفى الهائل الذى سوف يكون لتحرير باريس فى نفوس الفرنسيين وفى جيوشه بل فى العالم كله . كما كان يدرك لهفة أهاليها وكذلك لهفة الجنرال شارل ديجول زعيم فرنسا الحرة العنيد .

ولكن المنطق العسكرى الدقيق الذى كانت تتضمنه مذكرة من ٢٤ صفحة على مكتبه ، تغلب لدى أيزنهاور على جميع الاعتبارات الأخرى ، وكانت له قوة أكبر من قوة السحر الذى تحتوى عليه كلمة « باريس » .

كانت تلك المذكرة التى كتب على غلافها « سرى للغاية » قد أعدها مجلس تخطيط قيادة الحلفاء فى أوربا المؤلف من ثلاثة أشخاص ، وهو المجلس الذى كان يزود القائد الأعلى بالتوصيات التى كان يبنى عليها قراراته الاستراتيجية الهامة .

كان آيزنهاور مقتنعا بأن الألمان سوف يدافعون بضراوة عن باريس ، فجميع الاعتبارات الاستراتيجية والجغرافية تحتم ذلك . وقد اكدت الدراسة الدقيقة التى أجراها مجلس التخطيط اقتناعه ، وكان يريد أن يتحاشى دخول معركة فى باريس .

وقد حذرت المذكرة من انه فى حالة دفاع الألمان دفاعا قويا عن باريس ، فان اخراجهم منها سوف يتطلب « قتال شوارع عنيفا وطويلا مشابها لذلك الذى دار فى ستالينجراد » وهو قتال « من المحتمل ان يؤدى الى دمار العاصمة الفرنسية » .

ولم يكن فى وسع أيزنهاور أن يسمح بأن يحدث هذا لباريس .

وعلاوة على ذلك ، فهو لم يكن يريد لمدرعاته التى أصبحت الآن تتوغل فى حرية عبر فرنسا ، ان تغوص وتتجمد فى معركة داخل مدينة باهظة التكاليف .

ولكن فوق هذا كله كان هناك سبب أهم من هذه الأسباب جميعا أملى على أيزنهاور قراره .. وكان هذا السبب ملخصا فى احدى فقرات المذكرة التى على مكتبه .

وكانت تلك الفقرة تقول :

« اذا اخذنا باريس فى موعد مبكر ، فانها سوف تصبح قيدا ثقيلا على قدرتنا على تحريك القوات » .

واضافت المذكرة قولها :

« ان الاستيلاء على باريس سوف ينطوى على مسئوليات مدنية توازى استخدام ثمانى فرق عسكرية فى العمليات ».

اى أن استخلاص باريس من الالمان كان يعنى المخاطرة بفقد الوقود اللازم لدبابات ما يقرب من ربع الفرق العسكرية السبع والثلاثين التى كان أيزنهاور قد أنزلها فى فرنسا حتى ذلك الوقت .

وكانت تلك مخاطرة لم يكن أيزنهاور مستعدا للاقدام عليها .

فقد كان الجازولين فى ذلك الصيف أثمن ما فى الوجود بالنسبة له . وقد قال فيما بعد : « لقد كنت أتوجع فى كل مرة كان يتعين على فيها أن أتنازل عن جالون واحد منه » .. وكانت باريس لابد أن تكلفه آلافا مؤلفة من الجالونات .

ولم يكن الاستيلاء على باريس هو الذى سوف يستنفد كثيرا من موارد جيوش أيزنهاور ، ولكن امدادها بحاجيات معيشتها بعد تحريرها كان هو الذى سوف يشكل العبء الثقيل .

فقد ذكرت مذكرة مجلس تخطيط قيادة الحلفاء فى اوربا أن « احتياجات باريس من المواد التموينية والطبية وحدها ، سوف تبلغ ٧٥ الف طن فى الشهرين الاولين ، كما أن حوالى ١٥٠٠ طن اضافية من الفحم سوف تكون لازمة يوميا لمواجهة حاجة المرافق العامة » .

وبما أنه لم يكن تحت تصرف أيزنهاور فى ذلك الوقت غير ميناء شيربورج والشواطىء التى أنزل فيها جنوده ، وبما أن سكك حديد فرنسا كانت حطاما ، فان كل طن من المواد التى سوف تحتاجها باريس سوف يتحتم نقله اليها من نورماندى بواسطة سيارات النقل .. والمسافة بينهما ذهابا وايابا هى ٤١٦ ميلا .

ولذلك نصحت مذكرة مجلس التخطيط بتجنب تلك المسئولية ـ مسئولية تحرير باريس ـ لاطول مدة ممكنة .

واقترحت المذكرة خطة أخرى تقضى بالقيام بحـركة كماسة شمالى المدينة وجنوبها ، من شأنها ان تتيح للحلفاء ابعاد قواعد اطلاق الصواريخ من طراز ف ١ و ف ٢ .. وهى مهمة وصفها المذكرة بأنها هامة وعاجلة الى حد « يبرر المغامرة بالاقدام على ما هو أكثر من المخاطرات العادية » .

ونصت تلك الخطة على أن تضرب مجموعة الجيوش الاحدى والعشرون التى تقودها السير برنارد مونتجمرى فوق منطقه نهر السين العليا بين « الواز » والبحر ، فتفتح ميناء « الهافر » وتهدد قواعد اطلاق الصواريخ فى منطقة « بادى كاليه » . ثم عند « اميان » التى تقع على بعد ٨٢ ميلا شمالى باريس ، ينسلخ عنها فيلقان ليندفعا شرقا فى حركة دائرية . وفى الوقت نفسه تقطع مجموعة الجيوش الأمريكية الاثنتا عشرة نهر السين جنوبى باريس عند « ميلان » وتندفع فى الاتجاه الشمالى الشرقى الى « ريمس » التى تقع على بعد ٩٨ ميلا وراء باريس .. ثم تستدير غربا للالتقاء بالقوات البريطانية المنطلقة من « أميان » .

وعند التقاء القوتين تكون باريس قد حوصرت داخل طوق لا فكاك لها منه ..

وكان التاريخ التقريبى الذى اقترح لهذه العملية هو الفترة الواقعة ما بين نصف سبتمبر وأول اكتوبر .

وقد تضمنت هذه الخطة ثلاث مزايا كبرى فى نظر ايزنهاور هى .. اولا : انها تتفادى وقوع معركة شوارع مدمرة فى باريس ؟ وثانيا : انها تدفع قواته فى مناطق تستطيع الدبابات استخدامها على احسن وجه .. وثالثا ـ وهو الأهم ـ انها توفر الجازولين

الثمين لهدفه الأكبر ، وهو فتح ثغرة فى خط سيجفريد واقامة راس جسر فوق نهر الراين قبل حلول الشتاء .

ولم يكن هناك غير أمر واحد فقط يمكن أن يعرقل تنفيذ هذه الخطة ، هو : وقوع حادث غير متوقع مثل اشتعال ثورة مسلحة فى باريس . غير أن أيزنهاور كان فى امكانه أن يطمئن من هذا الناحية فقد أصدر الى الجنرال بيير جوزيف كونيج رئيس حركة المقاومة الفرنسية ـ أو « القوات الفرنسية فى الداخل » كما كانت تسميها رسميا حكومة فرنسا الحرة فى المنفى ـ تعليمات صارمة تنص على أنه يجب ألا تنشب فى باريس أو غيرها أية ثورات مسلحة الى ان يصدر هو ـ أى آيزنهاور ـ أمره بذلك . وابلغه ايضا بانه من أهم الأمور « الا يحدث شيء فى باريس يقتضى تغيير خططنا »

وسوف يفرض هذا الأمر قيدا ثقيلا على الباريسيين يصعب عليهم احتماله .. ولكن ايزنهاور قال لرئيس أركان حربه اللامع الجنرال والتر بيدل سميث :

ـ اذا استطاع الباريسيون أن يعيشوا مع الألمان فترة قصيرة أخرى فان تضحيتهم قد تساعدنا على تقصير أمد الحرب .

وللتأكد من أنهم سوف يفعلون ذلك ، كانت المخابرات البريطانية قد اوفدت « آلان بيربيزا » ليهبط بمظلته فى فرنسا فى ليلة غاب عنها القمر .

٤

بالنسبة لرجل فرنسي تستبد به الكآبة وتغلفه الوحدة ، منتظرا في صبر نافد في حر صيف الجزائر المشبع بالرطوبة ، كانت باريس هي المحور الذي سوف يدور حوله قريبا مصير بلاده .. وكذلك مصيره هو شخصيا . فأكثر من أي واحد آخر من الرجال الذين حوله ، كان **شارل ديجول** يعرف ان باريس هي المكان الذي سيتحدد فيه ما اذا كان النجاح أو الفشل سيكون هو نصيب المغامرة الجريئة التي غامر بها والتي تمثلت في النداء الذي وجهه الى مواطنيه المهزومين من لندن في الثامن عشر من يونيو سنة ١٩٤٠ .

كان ديجول مقتنعا بأن ما سوف يقع في باريس في الأسابيع القليلة المقبلة ، سيقرر لمن سوف تكون السيطرة على فرنسا بعد الحرب . وكان ديجول مصمما تصميما لا يتزعزع على وجوب أن تكون هذه السيطرة له .

وكان ديجول يعتقد أن هناك جهتين تتآمران على حرمانه من هذه السيطرة ، هما : أعداؤه السياسيون ، أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي .. وحلفاؤه العسكريون ، الأمريكيون .

فالعلاقات بين الولايات المتحدة وديجول كانت قد تدهورت بانتظام بعد شهر عسل قصير لم يدم طويلا فى سنة ١٩٤٠ . وكانت مجموعة من العوامل والأحداث قد ساعدت على تغذية عدم الثقة والشكوك التى كانت تسمم العلاقات الفرنسية ـ الأمريكية فى سنة ١٩٤٤ .

ومن هذه العوامل والأحداث ، اعتراف الولايات المتحدة بحكومة فيشي ـ الحكومة التى أقامها المارشال بيتان فى فرنسا بعد احتلال الألمان لها ـ والاتفاق السرى الذى عقدته الولايات المتحدة مع دارلان ، وأحجامها عن ابلاغ ديجول بعزمها على انزال قواتها فى شمال افريقيا الى أن بدا فعلا نزول القوات ، وعدم الاستلطاف الشخصى المتبادل بين ديجـــول والرئيس الامــريكى فرانكلين روزفلت .

فقد كانت الولايات المتحدة قد عقدت اتفاقا سريا مــع الأميرال الفرنسى جان لوى دارلان حاكم الجزائر التابع لحكومة فيشى ، تعهد الأميرال الفرنسى بموجبه بعدم مقاومة غزو الحلفاء للجزائر .. وعندما :وقظ الجنرال ديجول فى صباح الثامن من نوفمبر سنة ١٩٤٢ ليبلغ بأن القوات الأمريكية بدأت تنزل الى شواطىء الجزائر ، استشاط غضبا وقال : « ارجو أن تقذف بهم فيشى فى البحر » !

ولكن ما كان يغيظ ديجول من الولايات المتحدة أكثر من هذه الامور جميعا ، كان رفض روزفلت الاعتراف بلجنة التحرير الوطنى الفرنسية التى شكلها ديجول كحكومة مؤقتة لفرنسا . وكان ديجول يرى ان اتخاذ أمريكا لهذا الموقف يعنى رفضها الاعتراف بزعامته لفرنسا ».

وكان روزفلت قد حدد موقف امريكا من هذا الموضوع فى مذكرة بعث بها الى الجنرال جورج مارشال فى الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٤٤ فقد قال له فيها :

« ينبغى علينا أن ننتفع الى أقصى مدى بأى نفوذ قد يكون لديجول أو تنظيم تابع له يمكنه أن يفيدنا فى مجهودنا العسكرى ، بشرط الا يؤدى ذلك لأن نفرضه بقوة السلاح على الشعب الفرنسى كحاكم لفرنسا » .

كما ابلغ روزفلت ايزنهاور بأن القيادة العليا للحلفاء فى أوربا يمكنها أن تتعامل مع لجنة التحرير الوطنى الفرنسية ، ولكن على أساس ألا تفعل شيئا يمكن ان يشكل اعترافا بهذه اللجنة كحكومة مؤقتة لفرنسا .

أما علاقات ديجول بأيزنهاور فقد كانت أفضل ، وان كان القائد الأعلى لقوات الحلفاء فى أوربا قد شكا من أن ديجول « لا يكف عن محاولة حملنا على تغيير هذا الأمر أو ذاك ، لكى يتمشى مع أغراضه السياسية » .

وكتب رئيس أركان حرب ايزنهاور الجنرال والتر بيدل سميث ردا على مذكرة تلقتها القيادة العليا للحلفاء فى أوربا ، الكلمات اللاذعة التالية :

« كان يسعدنى ان أطلع الجنرال ديجول على شئوننا ، لو استطاع أحد أن يحدد لى وضعه بالنسبة لهذه القيادة . ولكن فى حدود علمى فانه لا وضع له بالمرة » .

وكانت هناك مضايقات اخرى أيضا .. فاتصالات ديجول اللاسلكية مع رجاله فى لندن ، كان يتحتم أن تتم من خلال الانجليز والأمريكيين . وكان يعلم أن تشرشل رئيس وزراء بريطانيا قد أصدر تعليماته الى انتونى ايدن وزير خارجيته بأن تراقب هذه

الاتصالات من الناحية السياسية . كما ان القرار الذى اتخذه الحلفاء باصدار عملة جديدة يوم نزول جيوشهم فى فرنسا قد آثار الزعيم الفرنسى الى حد انه سحب الأغلبية العظمى من ضباط الاتصال الفرنسيين الخمسمائة الذين كانوا قد تدربوا على مساعدة القيادة العليا للحلفاء فى أوربا على ادارة المناطق المحرره على شاطىء نورماندى .

كان اكثر ما كان ديجول مصمما عليه هو الا يكون هناك اى وجود بالمرة للجهاز الذى أنشأه الحلفاء لحكم المناطق المحتله على أرض فرنسا • وكانت مخاوفه فى هذا الصدد قد هدأت الى حد ما فى شهر يوليو عندما قام بزيارته الرسمية الأولى لواشنطون ، فقد توصل الى اتفاق مع روزفلت حول ادارة فرنسا بعد تحريرها ثم ولكنه كان اتفاقا هزيلا وغير مستقر .

كان ذلك الاتفاق ينص على تقسيم فرنسا الى جزئين : جزء داخلى تسلم ادارته الى لجنه التحرير الوطنى الفرنسيه التابعة لديجول ، وجزء يدخل فى منطقة العمليات العسكرية وتكون الكلمة العليا فيه لقيادة الحلفاء فى أوربا وكانت مسئولية تعيين حدود كل من الجزئين متروكة فى الدرجة الأولى لأيزنهاور .

وقد فشل هذا الاتفاق فى تذليل الخلاف الأساسى بين ديجول والقيادة العليا للحلفاء فى أوربا • فديجول كان يرى انه بوصفه رئيس حكومة فرنسا الحرة ، يمثل السياده الفرنسية ، وعلى ذلك فينبغى ان تكون سلطته هى العليا فى فرنسا وليس سلطة قيادة الحلفاء . بينما كانت فرنسا بالنسبة لقيادة الحلفاء مسرحا للعمليات العسكرية ، وكانت تلك القيادة ترى أن مطالب ديجول السياسية يجب أن تخضع لمطالبها هى الاستراتيجية .

ولم يتضمن الاتفاق اى نص خاص بباريس ، فقد افترضت واشنطون أن تلك المدينة سوف تبقى فى منطقة العمليات العسكرية

لبعض الوقت بعد تحريرها ، كما انه لم يكن لدى روزفلت أية نية فى أن يقيم فيها حكومة لم يكن هو نفسه قد اعترف بها بعد .

وكان هذا الافتراض معقولا وواقعيا ، ولكنه كان يغفل حقيقة واحدة اساسية هى : تصميم شارل ديجول القاطع على أن يستقر هو وحكومته فى باريس بأسرع ما يمكن . فقد كان ديجول يشعر بأن مصيره ومصير فرنسا يتوقفان على نجاحه فى ذلك .

وفى تلك الأيام الحرجة فى بداية اغسطس ، كان ديجول قد اقتنع بأن روزفلت ينوى سد الطريق الى حكم فرنسا فى وجهه عن طريق ابقائه فى الجزائر ، بينما تدبر وزارة الخارجية الأمريكية المؤامرات ضده فى فرنسا .

وكان ديجول واثقا من أن جهود امريكا فى هذا المجال لا يمكن أن تحقق نجاحا ، ولكنه كان يخشى أن تتسبب فى تأخيره فترة يتمكن خلالها عدوه الحقيقى — الحزب الشيوعى الفرنسى — من ان يثبت أقدامه فى مراكز السلطة والقوة فى باريس .. وهذا أمر ما كان فى وسعه أن يسمح به .

فقد كان ديجول مقتنعا بانه يتنافس فى سباق مع الحزب الشيوعى الفرنسى ، نهايته هى باريس ، أما جائزة الفائز فيه فهى فرنسا كلها .

وكان منذ سنة ١٩٤٣ قد أصدر أوامره الى رجاله المختصين بتزويد حركة المقاومة السرية داخل فرنسا بالأسلحة ، بعدم اسقاط الاسلحة بالمظلات للشيوعيين مباشرة ولا بطريقة تجعلها عرضة لان تقع فى أيديهم .

ومنذ نزول قوات الحلفاء على شاطىء فرنسا ، كان قد بدأ فى تنفيذ خطة من شأنها منع الشيوعيين من الاستيلاء على السلطة فى فرنسا . فكلما تم تحرير أية قطعة من الأراضى الفرنسية

كانت جميع السلطات المدنية فيها توضع فى يد مندوب سـام معين من قبله مسئول أمام حكومته وحدها • وكانت أكثر التعليمات التى اصدرها الى هؤلاء المندوبين صرامة ، هى تلك الخاصة بطريقة معاملتهم للجان المقاومة المحلية التى كان ديجول يشعر انالشيوعيين يسيطرون عليها . فقد كانت تلك التعليمات تقضى بعدم منح تلك اللجان أى نوع من السلطة المباشرة فى المناطق المحررة ، وبعـدم السماح لها بأى حال من الاحوال ان تتحول الى « لجان سـلامة عامة » على غرار تلك التى تشكلت ايام الثورة الفرنسية •

وقد تلقى ديجول خلال اندفاع قوات الحلفاء فى مقاطعة بريتانى سلسلة من التقارير المقلقة . ففى كل مكان ، ظهر أن الشيوعيين اقوى وأحسن تنظيما واكثر جراة فى مطالبتهم بالسلطة مما كان يتوقع •

ولكن التجربة الفاصلة سوف تكون فى باريس • وفى الرابع عشر من يونيو اصدر ديجول أمرا بوقف اسقـاط الأسلحة فى منطقـة باريس بأسرها ، وكان تقـديره هو أنه قد أصبح لدى الشيوعيين عندئذ ٢٥ ألف رجل مسلح فى المدينة •

وكان ديجول واثقا من أن الحزب الشيوعى يستعد لاشعال ثورة دموية فى باريس بقصد الاستيلاء على مفاتيح السلطة التى تحكم بوساطتها فرنسا ، قبل ان يتمكن هو من الوصول اليها • ثم يرسخ الشيوعيون أقدامهم بعد ذلك فى الأجهزة التى تحكم فرنسا ويواجهونه ب « كومون » يتولون هم توجيهه عندما يصل هو وحكومته الى باريس •

وبفضل المركز الذى يكونون قد ثبتوا أنفسهم فيه فانهـم يستطيعون أن يعزلوه هو ووزراءه فى ركن فخرى بعيد عن كل سلطة حقيقية بينما يكملون هم مهمة تشديد قبضتهم على فرنسا •

وكان ممثله السياسى فى باريس ـ الموظف الهادىء الكسندر بارودى ـ يعتقد أنه لم يعد لديجول أن يتوقع ما هو أقل من تحد شيوعى مسلح لسلطته فى العاصمة .

وكان رد ديجول على هذا كله بسيطا .

انه سوف يسيطر على باريس قبل أن يتمكن الشيوعيون من أن يسبقوه الى ذلك .

فلو أتيح لهم أن يثبتو اقدامهم فى مراكز السلطة قبل أن تفعل حكومته ذلك ، فلن تكون هناك وسيلة لزحزحتهم عنها الا الدخول فى معركة دموية معهم ، وهو أمر لا تريده فرنسا ولا تحتمله . ولذلك صمم ديجول على أن يسبق الشيوعيين مهما كان الثمن وبأية وسيلة .

وفى نفس الوقت تقريبا الذى توصل فيه ايزنهاور فى مقر قيادته فى جرانفيل الى قراره بتأجيل تحرير باريس ، كان ديجول فى الجزائر يكتب مذكرة سرية الى الجنرال بييركونيج رئيس حركة المقاومة الفرنسية .

وقال ديجول فى تلك المذكرة ان باريس يجب أن تتحرر بأسرع ما يمكن ، سواء أعجب ذلك الحلفاء أو لا . ففى نيته أن يذهب اليها بنفسه بمجرد أن تتخلص من الاحتلال الألمانى ليفرض فيها سلطته الشخصية وسلطة حكومته .

وكان قد قام ببعض الاستعدادات الأولية .

فبالنسبة لديجول ـ تماما كما هو الحال بالنسبة لايزنهاور ـ فان اشتعال الثورة المسلحة فى باريس سوف يكون كارثة .

ومثلما فعل أيزنهاور ، فقد أصدر هو أيضا أوامر مشددة بمنع حدوث ذلك .

٥

من نافذة شقة تقع في الدور الخامس من احدى عمارات ضاحية « أوتاي » في باريس ، وقف الرجل الذى بعث اليه ديجول بأوامره تلك يحدق فى ظلام الليل ، ويحاول أن يتبين ملامح مدينة باريس المطفأة الأنوار .

اسم ذلك الرجل هو جاك شابان ــ دلماس . وكان عندئذ فى التاسع والعشرين من عمره وكان يحمل رتبة « جنرال » .

فى ذلك اليوم من ايام اغسطس ، كان قد تلقى رسالة شفوية تمتم بها اليه رجل كان يصلح أطار دراجته عند احدى نواصى الشوارع عندما مر به . وكانت هى الرسالة التى كان «جادامیكول» قد حل رموز شفرتها فى دير الراهبات الصغير قبل ذلك بساعات .

ولم تبد محتويات تلك الرسالة التى حملها « آلان بيربيزا » فى كعب حذائه مفجعة لأحد فى باريس ، بالقدر الذى بدت به لهذا الشاب المتجهم الملامح .

كان شابان ــ دلماس يعرف أن المهمة التى عهد اليه ديجول بأدائها فى باريس هى فى نظره أهم المهام التى كلفه بها . وكانت التعليمات السرية الخاصة بباريس التى تلقاها من مقر القيادة العسكرية لديجول فى لندن فى غاية الدقة والوضوح .

ان عليه ان يحتفظ بالسيطرة الكاملة على حركة المقاومة السرية في المدينة . وينبغي عليه الا يسمح تحت اى ظرف من الظروف بقيام ثورة مسلحة في العاصمة قبل ان يأذن له ديجول بذلك .

ولكن هذه الاوامر مستحيلة التنفيذ .

فلم يكن شابان ـ دلماس هو الذى يسيطر على حركة المقاومة فى باريس ، ولكن الحزب الشيوعى كان هو الذى يسيطر عليها .

كان قائد الجيش السرى فى فرنسا باجمعها جنرالا شيوعيا يدعى ألفريد مالاريه ـ جرانفيل . وكان قائد هذا الجيش فى منطقة باريس شيوعيا آخر ممتلىء الجسم من مقاطعة بريتانى . وكان نائبه الاول شيوعيا ثالثا اسمه بيير فابيان ، وهو الرجل الذى كان قد اطلق النار فى عام ١٩٤٢ فى محطة مترو « باريس » على اول جندى المانى يقتل فى العاصمة الفرنسية .

وكان الحزب الشيوعى يسيطر على النقابات وعلى الصحافة السرية .

وكان يسيطر كذلك على اثنتين من لجان المقاومة السياسية الثلاث فى باريس ، وقد احال الثالثة الى جمعية خطابة عديمة الفاعلية ، بحكم وجود اقلية قوية له بين اعضائها .

وكانت هذه اللجنة الثالثة التى تحمل اسم اللجنة القومية للمقاومة قد الفها ديجول سنة ١٩٤٣ ، وكانت ـ نظريا ـ الهيئة السياسية الرئيسية للمقاومة .

ولكن ديجول كان قد كف عن الاعتماد عليها منذ مدة بعد ان لمس قوة النفوذ الشيوعى الذى تسرب اليها ، واصبح يسخر منها .

وكانت عصابة من الشيوعيين قد قامت مؤخرا بعملية سطو جريئة استولت فيها على مبلغ ضخم من المال كان قد ارسل بطائرة خاصة الى شابان ـ دلماس من رئاسة حركة المقاومة الفرنسية فى لندن .

ومنذ اشهر عديدة والشيوعيون يعملون على دعم مراكزهم وعلى وضع رجالهم في المواقع الرئيسية في كل جزء من المدينة . وحتى اعمال الاسعاف لم تنج من محاولاتهم للسيطرة عليها .. فقد شكا احد كبار الأطباء التابعين لحركة المقاومة من أن الحزب الشيوعي قد فرض عليه نائبا لمراقبته .

ويوما بعد يوم كان شابان ـ دلماس يلاحظ تضخم عدد المنضمين لفرق المليشيا التابعة للحزب الشيوعي .

ولكن في الوقت نفسه لم تكن هناك في حركة المقاومة السرية جماعة ناضلت نضال الشيوعيين ، أو دفعت مثلما دفعوا من ضريبة الدم .

فعلى الرغم من أنهم تأخروا في الانضمام الى حركة المقاومة السرية ، اذ لم يشتركوا في المعركة ضد الالمان الا بعد ان بدا غزو النازيين للاتحاد السوفييتي عام ١٩٤١ .. الا انهم قدموا لها افضل جنودها انضباطا واحسنهم تنظيما واكثرهم شجاعة في كثير من الاحيان ايضا .

وقد زاد عدد المنضمين الى الحزب الشيوعي زيادة هائلة اثناء الحرب ، ولم تكن له في اى وقت مضى الهيبة التي اصبحت له الآن

وقد غدا الحزب الشيوعي أهم منظمة سياسة منفردة في فرنسا ، وغدت فرق المليشيا التابعة له أهم منظمة مسلحة منفردة في حركة المقاومة .

وقيادة الحزب التي تمرست منذ زمن بعيد على العمل السري ، ظلت طوال مدة الحرب باكملها سليمة بأجمعها . ولم يقع اى عضو فيها في قبضة الألمان . وكان الحزب على اتصال مستمر بموسكو من خلال شبكة من الرسل التابعين له ، كانوا يروحون ويجيئون بلا انقطاع بين فرنسا وسويسرا ، وكذلك بوساطة محطتي ارسال لاسلكيتين سريتين كانتا تعملان من جنوب غرب فرنسا .

وقد آن الأوان الآن لكى يطالب هذا العملاق السياسى المثير بثمن ثلاث سنوات شاقة من العمل . وسوف يطلب هذا الثمن فى باريس .

وبينما كان شابان ـ دلماس يحدق فى المدينة المطفأة الانوار التى عهد بها اليه ، كان يعرف ما سوف يكون عليه هذا الثمن الذى سوف يطلبه الحزب الشيوعى .

ان زعماء الحزب مصممون على أن يفرضوا فى شوارع باريس الثورة المسلحة التى تلقى هو الأمر بمنع وقوعها .

وكان يؤمن بأن الشيوعيين لابد أن يبدأوا ثورتهم مهما كان الثمن ، وحتى لو كانت نتيجتها هى تدمير أجمل مدينة فى العالم . فباريس تمثل بالنسبة لهم فرصة لا يسعهم أن يتركوها تفلت من أيديهم .

وقد حاول خلال الأسابيع الأخيرة أن يقنعهم بتفويت هذه الفرصة ، ولكن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح .

فغريمه الأكبر ، وهو مهندس شيوعى متقشف يدعى روجيه فييون ، كان يعتقد أن الديجوليين يريدون منع قيام الثورة لكى يتيحوا لزعيمهم دخول باريس على رأس جيش فاتح فيجدها راكعة عند قدميه اعترافا بفضله .

اما شابان ـ دلماس فقد كان يعتقد ان الشيوعيين يريدون اشعال الثورة لكى يستولوا على السلطة فى باريس ، ثم يرحبوا بديجول ليس بوصفه رئيس الفرنسيين الأحرار وانما بوصفه ضيفا وجهوا اليه دعوة الحضور .

ومثل سائر من فى باريس ، كان شابان ـ دلماس قد سمع أيضا اخبار ثورة وارسو من الاذاعة البريطانية ذلك المساء .

وكان قد أمضى أسابيع قبل ذلك ، كان أمله الوحيد خلالها فى انقاذ باريس من مصير شبيه بذلك الذى حل بالعاصمة البولونية ، هو أن يندفع الحلفاء نحو باريس مباشرة ويستولوا عليها بمجرد ان يفرغوا من نورماندى .. قبل ان يتمكن الشيوعيون من تنظيم ثورتهم .

ولكن الرسالة التى جاءت فى حذاء « ألان بيربيزا » قد قضت على ذلك الأمل .

وفى وحشة شقته المظلمة ادرك ذلك الجنرال الشاب الآن أن خطط الحلفاء سوف تقدم أكبر خدمة لخصومه الشيوعيين .

وايقن شابان ــ دلماس أن احد مصيرين اثنين لا ثالث لهما بات ينتظر باريس :

فاما ينتقم الجيش الألمانى من الثورة بسحقها بلا رحمة وبسحق باريس معها .

او يستولى قادة الثورة الشيوعيون بعد انتصارهم على قلاع السلطة فى العاصمة ويثبتون أقدامهم فيها لينشروا منها بعد ذلك سيطرتهم على فرنسا بأسرها .

ولم ير شابان ــ دلماس أمامه فى تلك الليلة الا مخرجا واحدا من هذا المأزق .

ان عليه أن يقنع الحلفاء بتغيير خططهم . ويجب عليه أن يحذر ديجول من الموقف فى باريس .

بطريقة ما ، يتحتم عليه ان يقوم بنفس الرحلة التى قام بها « الان بيربيزا » لتوه ، ولكن فى الاتجاه المضاد . ينبغى عليه أن يحاول الوصول الى لندن . وبكل ما فى الشباب وفى اليأس

من طاقة واندفاع وهمة ، سوف يتوسل الى أيزنهاور ان يغير خططه ويرسل طوابيره المدرعة الى باريس مباشرة .

***

بالنسبة للتفكير الملتوى للألمانى الذى كان يوجه جيوش الرايخ الثالث من مخبأ مبنى بالصلب والأسمنت المسلح تحت سطح الأرض فى راستنبورج ببروسيا الشرقية .. ربما كانت باريس تعنى ما هو أهم مما تعنيه للآخرين جميعا .

فلمدة أربع سنوات ـ من ١٩١٤ حتى ١٩١٨ ـ كان ستة ملايين من الألمان مثل الرقيب أدولف هتلر قد الزموا خنادق الجبهة الغربية بفعل السحر الذى تنطوى عليه صرخة « الى باريس ! » وكان مليونان منهم قد قتلوا .

وفى عام ١٩٤٠ ، حقق هتلر فى أربعة أسابيع مذهلة ما عجزوا عن تحقيقه فى أربعة أعوام .

وفى يوم الاثنين ، الرابع والعشرين من يونيو ، فى الساعة السابعة صباحا ، وبعد مرور أسبوعين على دخول قواته باريس ، حافظ هتلر على موعده مع المدينة .

ولم ير الا عدد ضئيل من الباريسيين سيارته « المرسيدس » السوداء وهى تتوقف فى ذلك الصباح عند مرتفع يشرف على المدينة ، ليتأمل غازى باريس لدقيقة طويلة ومرضية المشهد التاريخى العريض الممتد أمام عينيه :

نهر السين ، وبرج ايفل ، وحدائق « الشان دى مارس » وقبة قبر نابوليون الذهبية فى قصر « الانفاليد » والى اليسار عند الأفق أبراج كاتدرائية « نوتردام » ذات الثمانمائة سنة من العمر .

وقد أصبحت باريس الآن هى آخر مغنم تبقى فى يديه من مغانم حرب استمرت خمسة أعوام .

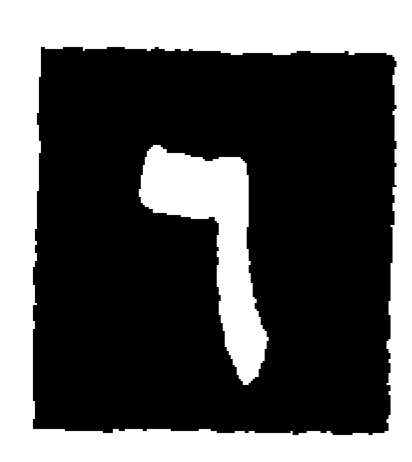
وخلال الخمسة الأيام الماضية كان هتلر قد تابع على خرائط مخبئه فى راستنبورج تقدم جيوش الحلفاء المتدفقة من الفجوة التى اخترقتها فى خط دفاعه فى نورماندى عند « افرانش » . وكان هتلر يعلم أن معركة فرنسا قد بلغت أوجها ، ولو خسرها ، فلن تكون هناك الامعركة واحدة بعدها هى معركة ألمانيا .

ومثل شارل ديجول ، كان هتلر يعرف ان باريس هى المحور الذى تدور عليه فرنسا كلها . وقد هاجم هتلر باريس مرتين فى حياته القصيرة ، ولكن سخرية التاريخ سوف تضعه فى دور آخر قريبا . فى هذه المرة سوف يكون أدولف هتلر هو المدافع عن باريس .

ومثلما كان واضعو خطط القيادة العليا للحلفاء فى أوروبا يعلمون ، فان كل الأسباب تدفعه الى أن يتشبث فى استماتة بالحصن الدفاعى الطبيعى الذى تشكله باريس مع نهر السين . فاذا ضاع منه هذا الحصن ، ضاعت معه مواقع اطلاق صواريخه .. ووجد جيوش الحلفاء على عتبة بلاده .

وسوف يعرف هتلر كيف يقاتل من أجل باريس مثلما عرف كيف يقاتل من أجل ستالينجراد ومونت كاسينو وسانت لو . وبعد أيام قليلة ومن هذا المخبأ فى بروسيا الشرقية ، سوف يصدر أوامره بالدفاع عن باريس حتى آخر رجل . وبعد ذلك سوف يصيح فى هيئة أركان حربه المتشككة وهو يهوى بقبضته على مائدة اجتماعاته المصنوعة من خشب البلوط :

— ان من يمسك بباريس يمسك بفرنسا !



كانت امارات الارهاق الذى احدثته الحرب فى الجيش الالمانى تبدو واضحة على وجوه الجنود الشبان الذين وقفوا فى محطة سيليزيا ببرلين ينتظرون القطار الذى سوف يعود بهم الى الجبهة الشرقية بعد انتهاء اجازاتهم .

وكان الرجل البدين القصير الذى يحمل رتبة « جنرال لويتنانت » — أى لواء — فى الجيش الالمانى ، والذى كان يشق طريقه بينهم فى خطوات بطيئة ، ينظر فى اشفاق الى وجوههم الجامدة الواجمة . فكثيرا ما سبق له ان وقف مثلهم فى وحشة هذه المحطة المعتمة الانوار ينتظر نفس القطار الذى ينتظرونه ليعود به الى ميدان القتال فى الشرق .

ولكن الجنرال ديتريش فون شولتتز كان سيستقل قطارا آخر فى هذه الليلة .. قطارا سوف يحمله مع مجموعة من الزوار البارزين الآخرين الى مقر قيادة ادولف هتلر فى راستنبورج ببروسيا الشرقية ..

وصعد فون شولتتز الى عربة النوم الزرقاء ، التى ذكرته برحلات قديمة اكثر متعة ايام كان السلام يسود اوربا ، ووراءه

الجندی المكلف بخدمته يحمل حقائبه • وبمجرد ان دخل الحجرة المحجوزة له بدأ يفك ازرار سترته بينما اخذ خادمه يضــع على رف الحــوض أدوات حلاقته وانبــوبة من حبوب « ريفونال » المنومه ، حيث كان محتاجا لتلك الحبوب لينام مبكرا ، ففى الصباح التالي سوف يستقبله لأول مرة فى حياته الرجل الذى حكم الرايخ الثالث .

وكان من النادر فى ذلك الصيف من عام ١٩٤٤ أن يستدعى هتلر ماريشالات جيشه لمقابلته • وكان الأندر من ذلك ان يعطى من وقته للجنرالات . ولكن فون شولتتز كان قد استدعى لسبب خاص . فهذا اللواء البروسى الممتلىء الجسم الصارم الملامح كان قد اختاره هتلر بنفسه ليتولى الدفاع عن عاصمة فرنسا .

فقبل ذلك بثلاثة أيام ، وفى نفس مقر القيادة الذى كان قطار هتلر يتجه به اليه ، كان رجل قد اختار ملفات ثلاثة جنرالات من الدولاب الحديدى الذى يحتفظ بمفتاحه معه . وكان أحد هذه الملفات هو ملف فون شولتتز •

كان ملف فون شولتتز قد استرعى انتباه الجنرال فيلهيلم بورجدورف رئيس قسم شئون الضباط بمقــر القيادة العليا للجيش الألمانى ، على الفور . فقد كان ذلك الملف يظهر قبل أى شيء آخر ان صاحبه رجل لم يتزعزع قط ولاؤه للرايخ الثالث . وكان مثل هذا الرجل هو الذى يريده بورجدورف لباريس .

فروح الهزيمة وضعف الولاء كانا قد بدآ يتفشيان بين القواد الألمان ، وكان ذلك أظهر ما يكون فى باريس نفسها .

فكبير قواد الجيش الألمانى فى فرنسا ، الجنرال كارل هاينريش فون شتولبناجل ، كان من زعماء مؤامرة العشرين من يوليو التى استهدفت اغتيال هتلر . وهو الآن يرقد على « برش » فى سجن بلوتزنزى ببرلين وقد فقد بصره واصبح نصف ميت نتيجة لمحاولة

الانتحار التى اقدم عليها . وعما قريب سوف يتم خنقه بناء على أوامر هتلر . اما قائد منطقة باريس الكبرى الحالى ، الجنرال هانز فون بوينبرج ـ لنجسفلد ، فلم يكن يبدو افضـــل بكثير منه فى نظر بورجدورف .

وكان بورجدورف يعرف ان القيادة العليـــا الألمانية سوف تحتاج فى باريس فى الأيام العصيبة المقبلة الى رجل ، لا يمكن ان يكون ولاؤه أو كفاءته موضع شك .. رجل يعيد النظام الى المدينة بقبضة حديدية ، ويعرف كيف يسحق بلا تردد اية ثورة يقوم بها المدنيون فيها ، ويعرف كيف يهيئها للمعركة الدفاعية الرهيبة التى كان بورجدورف واثقا من ان هتلر سوف يطلبها .

وبدا له فون شولتتز من خلال ملفه ، الرجل المطلوب . فأخذ ملفه ووضعه امام الفوهرر .

وقال لهتلر وهو يرشحه لمنصب قائد منطقة باريس الكبرى :

« انه ضابط لم يناقش ابدا أى أمر صدر اليه مهما بلغت شراسة ذلك الأمر » .

ووافق هتلر على الترشـــيح .. ولكن لشـــدة اهتمامه بأمر باريس ، طلب استدعاء فون شولتتز من نورماندى حيث كان يعمل ، الى مقر القيادة العليا ، لكى يتولى بنفسه اعداده لتســـلم قيادته الجديدة .

بالنسبة لهذا الضابط الذى لاترتقى الشكـوك الى ولائه ، والذى قرر هتلر تعيينه قائدا لمنطقة باريس كانت الحرب قـد بدأت فى الســـاعة الخامسة والنصف من صبـــاح العاشر من مايو سنة ١٩٤٠ عندما قفز من أول طائرة حـربية ألمانيـــة هبطت فى مطار روتردام على رأس الكتيبـــة الثالثـة من لواء المشـــاة السادس عشر التى كان يقودها وهو برتبة «مقدم» ليتولى قيادة الهجوم الألمانى الخاطف فى الغرب . كان هو أول ضابط المانى هجم على

هولندا . وكانت مهمته هي الاستيلاء علي الكبارى الممتدة فوق نهر « نووى ماس » عند طرف المدينة الجنوبى .

بعد أربعة ايام واربع ليال من القتال البالغ العنف . كان الهولنديون لا يزالون مستمرين فى المقاومة .

وعند ظهر يوم ١٤ مايو أمر فون شولتتز بايفاد رجلين كان احدهما قسيسا والآخر بقالا ، الى الخطوط الهولندية لاقناع القائد الهولندى بالاستسلام ، وطلب منهم انذاره بأن مدينة روتردام سوف تضرب بالمدفعية بلا رحمة فى حالة رفضه . بعد ذلك بساعتين عاد الرسولان دون ان يكونا قد تمكنا من العثور على القائد الهولندى .. فبدأ قصف المدينة . وعندما أحس فون شولتتز أن القصف قد استمر مدة كافية : حاول ان يوقفه عن طريق اطلاق شعلة اشارة . ولكنه ذكر فيما بعد ان الاشارة طمسها الدخان المتصاعد من احدى مراكب نقل البضائع التى كانت واقفة قريبا ، فلم يتمكن رجال المدفعية من رؤيتها ، واستمر القصف . وقد دمر ذلك القصف قلب روتردام وذكر الهولنديون انه تسبب فى قتل ٧١٨ شخصا داخل المدينة وفى اصابة ونسف منازل ٧٨ الف شخص .

وقد سأل صديق لشولتتز فاتح روتردام فيما بعد ما اذا لم يكن قد تعذب ضميره لانه قاد هجوما على بلد لم تعلن المانيا الحرب عليها ؟

فرد عليه شولتتز فى دهشة : ولماذا يتعذب ضميرى ؟!

كان ديتريش فون شولتتز قد تربى على الا يستعمل السؤال « لماذا ؟ » .. فمنذ لحظة مولده فى قصر أسرته الواقع بين الغابات فى اقليم سيليزيا ، كان مصيره قد تحدد . فقد سبقته ثلاثة اجيال من العسكريين البروسيين الى الخروج من هذا القصر لدخول الجيش الالمانى .

وكانت اعظم لحظات حياة فون شولتتز اثناء حصار سباستوبول فهناك فاز بشارات رتبة الجنرالية . عندما بدأ حصار ذلك الميناء الواقع على البحر الأسود كان عدد افراد اللواء الذي كان يقوده ٤٨٠٠ رجل . اما في ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٢ فلم يكن قد تبقى منهم غير ٣٤٧ . ولكن فون شولتتز ، على الرغم من ان دماءه كانت تسيل من جرح اصيب به في ذراعه الأيمن ، كان قد تمكن من الاستيلاء على سباستوبول .

ومن أجل ان يتوصل الى ذلك ، لم يكن قد تردد في أن يجبر أسراه من الروس على نقل الذخيرة لمدافعه التي كانت تقصف المدينة المحاصرة وعلى شحن تلك المدافع بالقنابل . بل انه رأى طرافة تدعو الى الضحك في أن يكره الروس على حشو مدافعه بالقنابل التي تطلق لنسف بيوتهم !

وبعد ذلك عندما نقل الى مركزٍ عسكرى آخر ، كان من سوء حظ الفرقة التي التحق بها ، ان تصبح مهمتها هي تغطية انسحاب جيش يتراجع ، ولكنه ــ كعادته ــ نفذ في أمانة الأوامر التي صدرت اليه . وكانت تلك الأوامر التي صدرت في أيام سنة ١٩٤٣ الصعبة تقضي بألا يبقى وراء الجيش الألماني المنسحب غير الأرض المحروقة والدمار .

وهكذا فان هذا الجنرال المغمور الذي ينتظر مبارحة قطار الفوهرر لمحطة سيليزيا ، سوف يحمل معه الى باريس شهرة قائد تخصص في تحطيم المدن ، وهي شهرة اكتسبها عن جدارة .

وقد اعترف ذات يوم بعد ذلك لدبلوماسي سويدي في باريس بأن مصيره منذ سباستوبول أصبح تغطية انسحاب الجيوش الألمانية وتدمير المدن التي تركها وراءها .

***

على بعد تسعمائة ميل كان هناك رجل آخر ينتظر هو ايضا قيام قطار . وربما كان ذلك الرجل ــ جاك شابان دلماس ــ هو

الراكب الوحيد فى ذلك القطار المتأهب للسير من محطة « ليون » بباريس ، الذى كان يعرف فى ذلك المساء انه من المقرر محاولة اخراج ذلك القطار عن القضبان مرتين قبل وصوله الى مدينة ليون .

وكان شابان دلماس يعلم ذلك لان مهاجمة القطار عند موقعين في طريقه ، كانت جزءا من خطة شارك هو نفسه في اعدادها لبث الفوضى في مواصلات الألمان الحديدية . وقد حاول منذ الصباح الباكر الغاء الهجوم ، لكنه لا يعرف اذا كانت أوامره فى هذا الصدد قد وصلت الى الرجال القابعين فى مخابئهم فى انتظار القطار . وكان كل ما يسعه أن يفعله هو أن يرجو أن تكون الأوامر الجديدة قد وصلت قبل فوات الأوان .

فقد كان شابان دلماس على موعد فى الليلة التالية مع طائرة فى حقل ترعى فيه الأبقار بقرب « ماسون » . ومثل كل طائرات الحلفاء التى تهبط سرا فى فرنسا المحتلة ، كانت التعليمات الصادرة الى تلك الطائرة هى ان تنتظر الركاب المقرر ان تقلهم مدة ثلاث دقائق . اما بعد مرور هذه الدقائق الثلاث فعليها أن تقلع فورا عائدة الى انجلترا سواء حضر الركاب أو لم يحضروا . وكان شابان دلماس يعتقد ان سلامة باريس ربما تتوقف على وصوله الى مرعى البقر فى الوقت المناسب .



خلال الأعوام الثلاثة عشر التى حمل خلالها فون شولتنز السلاح من اجل الرايخ الثالث ، لم يكن قد قابل هتلر الا مرة واحدة . وكانت تلك المرة منذ عام مضى ، فى صيف عام ١٩٤٣ ، فى مقر قيادة الجنرال فلدمارشال - أى المشير - فون مانشتاين فى الميدان، على ضفاف نهر «دنيبر» خارج مدينة «دنيبروبتروفسك» .. وكانت المناسبة هى حفلة غداء أقيمت هناك للفوهرر خلال احدى زيارات الدكتاتور الالمانى للجبهة الروسية .

وكان شولتنز قد جلس أمام هتلر على المائدة . وبينما كان هتلر يتحدث بلا انقطاع كعادته ، أتيح لشولتنزان يراقب عن كثب حاكم الرايخ الثالث .

وقد لفت نظره فى هتلر ثلاثة أشياء هى : الشعور بالثقة الزائد والمعدى الذى كان يتدفق من كيانه العصبى ، وحقيقة أنه لا يبتسم أبدا ، وكون أسلوبه فى الأكل وفى مراعاة آداب المائدة هو أسلوب فلاح جاهل . وهو أمر آثار الدهشـــة والاســـتنكار لدى ذلك الجنرال البروسى الارستقراطى .

والآن وبعد مرور سنة ، سوف يرى فون شولتنز هتلر من جديد . ولكن الظروف أصبحت مختلفة هذه المرة . فما بشر به

الفوهرر فى تفاؤل وثقة خلال غداء نهر « دنيبر » لم يتحقق ، وعلى عكس ذلك أصبحت طلائع الجيش الأحمر على بعد يقل عن ستين ميلا من راستنبورج نفسها ، كما أن المعركة فى نورماندى لم تكن تدور فى صالح الجيش الالمانى .

ومع ذلك فقد اعترف هذا الجنرال البروسى فيما بعد انه كان مستعدا فى صباح ذلك اليوم الذى نزل فيه من قطار الفوهرر فى غابة راستنبورج القاتمة ، لأن يتلقى حقنة جديدة من الثقة فى مصير المانيا . فقد كان فون شولتتز يؤمن بمصير بلاده ، وكان لا يزال يعتقد فى ذلك الصباح بأن فى امكان المانيا ان تكسب الحرب . وقد جاء الى راستنبورج ليجدد اقتناعه وثقته على يد هتلر .

فمثلما يحج المؤمن الى أماكن دينه المقدسة ليثبت ايمانه ، فقد ذهب شولتتز الى راستنبورج ليجدد ثقته فى الرايخ الثالث على يد الرجل الذى كان يحكمه .

وكان يريد أكثر من أى شىء آخر ان يخرج من اجتماعه به وقد ارتفعت روحه المعنوية واطمأن الى أنه لا تزال هناك فرصة لتغيير مجرى الحرب .

وكان « ياور » هتلر الخاص هو الذى استقبله فى محطة راستنبورج . فركب معه سيارته « المرسيدس » التى انطلقت بهما بين الاشجار المتشابكة التى تتألف منها الغابة الكثيفة التى تظلل « وكر الذئب » كما أصبح يدعى المكان الذى أقام فيه هتلر مع قيادته . وكان « وكر الذئب » محاطا بثلاث حلقات أمن ، على المتجه اليه أن يقف عند مدخل كل منها . وعندما بلغت السيارة مدخل الحلقة الاولى ، انزلت جميع حقائب فون شولتتز من السيارة لتفتيشها . وقال له « الياور » فيما يشبه الاعتذار انه بدأ تطبيق هذه الاجراءات الاحتياطية منذ ٢٠ يوليو ، وهو اليوم

الذى اكتشفت فيه المؤامرة الشهيرة التى كان قد دبرها عدد من كبار قواد المانيا للتخلص من هتلر .

وبعد ذلك عبرت السيارة الأحزمة الثلاثة من الأسلاك الشائكة ومن حقول الألغام وأوكار المدافع الرشاشة التى كانت تحيط بمقر هتلر ، وأخيرا اجتازت الحاجز النهائى الذى يحرس طريق قدس الأقداس النازى .

وهناك فى حفنة من المبانى المجاورة لبركة صغيرة ، وفى ظل حراسة سبع سرايا تابعة لفرقة الصاعقة الالمانية التى تحمل اسم « المانيــا الكبــرى » كان يعيش ادولف هتلر ومعه مســاعدوه الرئيسيون .

وكان بورجدورف ينتظر شولتتز فى الساحة القاتمة التى تقع بجانب مخبأ هتلر . فحتى في ذلك اليوم من أيام الصيف ، كانت بضعة اشعة قليلة ضعيفة فقط من الشمس هى التى تخترق الغابة التى تغلف « وكر الذئب » .

ووقف الرجلان ينتظران الاشارة التى تستدعيهما الى الاجتماع بهتلر .

وكان شولتتز يعــرف انه ليس من المناسب أن يســتجوب بورجدورف عن زيارته ، ولكنه وجه اليه سؤالا واحدا هو :

ــ لماذا تم اختياره لقيادة منطقة باريس الكبرى ؟

فأجابه بورجدورف بقوله :

ــ لأننا نعلم أنك تستطيع أن تقوم بالعمل الذى يجب القيام به هناك .

بعد ذلك ببرهة قصيرة اشار لهما رجال الصاعقة الواقفون عند مدخل المخبأ ، فدخل شولتتز ليتسلم من حاكم الرايخ الثالث قيادة اجمل مدينة فى الدنيا .

وبينما امسكت أصابعه في عصبية بحافة لباس راسه العسكرى ، عبر شولتنزالحجرة الكبيرة المضاءة بأنوار النيون الخالية من النوافذ متجها نحو الرجل الذى وقف مستندا الى المكتب العريض الموضوع فى أقصى الحجرة . ثم رفع يده اليمنى فى التحية التى اصبحت هى التحية الرسمية للجيش الالمانى منذ ٢٠ يوليو . وكان بورجدورف يقف وراءه مباشرة ».

ونظر شولتنز فى عينى الرجل الذى يواجهه اللتين انطفأ منهما اللمعان ، وأدرك على الفور أن هذا ليس هو نفس الرجل الذى جلس امامه على مائدة الغداء منذ عام مضى . فقد تحول هتلر الى رجل مسن . وجهه ظهرت فيه التجاعيد وعلامات الارهاق . وكتفاه تهدلتا . وكان يمسك كفه الأيسر بيده اليمنى ليخفى الرعشة الخفيفة فى ذراعه الايسر .

ولكن اكثر ما صدم شولتنز كان صوت هتلر . فذلك الصوت الجهورى القوى الذى طالما جعله يحبس أنفاسه وهو يستمع اليه فى الراديو .. ذلك الصوت الذى صب فيه ثقة جديدة فى العام الماضى ، قد وهن وخفت بحيث تحول الى همس شيخ متهدم .

وفى الواقع ، لم يسمع شولتنز جيدا الكلمات الأولى التى نطقها هتلر عندما التفت الى بورجدورف وسأله :

ـ هل أبلغ بمهمته الجديدة ؟

ورد بورجدورف قائلا :

ـ بشكل عام .. نعم ».

ثم بدأ هتلر يتكلم :

أولا بدأ يتحدث عن الماضى بلا هدف محدد ، معرجا على نقط بعيدة فى حياته . فشرح كيف أسس الحزب النازى وجعله جهازا

مثاليا لحكم الشعب الالمانى . واكد ان ذلك الحزب قد وفر لالمانيا ما كانت في حاجة اليه لتوجيه روحها المحاربة .

ثم بدا صوته يرتفع . فتعرف شولتتز عندئذ على صدى لذلك الرجل الذى كان قد رآه منذ عام .

وتحدث هتلر عن الانتصارات التى يعد لها ، وقال لشولتتز ان نورماندى ليست الا نكسة مؤقتة وانه سوف يقلب الآية قريبا بالاسلحة الجديدة التى يحضرها .

ثم فجأة وبلا انذار تحول هتلر الى موضوع آخر . اشتدت قبضة يديه على حافة مكتبه ومال نحو شولتتز حتى كاد وجهه يلامس وجهه وانقلب حديثه الى صياح .

وصرخ قائلا :

ـ يا سيدى الجنـرال ، منذ ٢٠ يوليـو تدلدل عشرات من الجنرالات ـ نعم ، عشرات ـ على حبال المشانق لأنهم أرادوا ان يمنعونى انا ادولف هتلر من مواصلة عملى .. من تحقيق رسالتى فى قيادة الشعب الالمانى .

وكان العرق يملأ جبهته ، ونقط صغيرة من الزبد تظهر على جانبى فمه ، وجسمه كله يرتعش وهو فى حالته العصبية تلك ، واستطرد يصرخ فى شولتتز قائلا :

ـ لكنه لا يوجد شىء يمكن أن يوقفنى ، سوف أستمر الى أن أقود الشعب الالمانى الى انتصاره النهائى .

وظل هتلر يصيح مرددا نفس المعانى ، ومتوعدا « عصابة الجنرالات البروسيين » الذين حاولوا قتله ، ومعددا أنواع التعذيب التى سوف يعرضهم لها قبل أن يبعث بهم الى قبورهم .. واخيرا ، هدأ وتهاوى فى مقعده ..

وبعد فترة صمت طويلة ، عاد يتحدث ثانية ، ولكن فى هدوء فى هذه المرة . وأصبح صوته عبارة عن همس خافت مثلما كان فى أول الاجتماع • وبدا كان المشهد الذى حضره فون شولتتز لم يحدث قط،

وقال للجنرال الذى قطع أوروبا ليجىء اليه :

ـ انت الآن سوف تذهب الى باريس ، وهى مدينة يبدو ان القتال الوحيد الذى يدور فيها هو اقتتال الضباط على موائد نواديهم •

واستطرد قائلا لشولتتز :

ـ ان هذا الوضع مشين ، وان واجبه الأول هو ان يضع حدا له، وعليه ان يحول باريس الى مدينة « خط أول » ومصدر رعب للمتهاونين والمنحرفين فى كل مكان •

وأوضح هتلر أن هذه ستكون الخطوة الأولى وان وراءها اعمالا أكبر ينتظرها منه • •

ثم قال لشولتتز أنه قد قرر منحه أوسع الصلاحيات التى يمكن أن تمنح لقائد حامية مدينة ، وهى صلاحيات تتيح له أن يحكم باريس كما لو كانت قلعة محاصرة • •

واضاف هتلر :

ـ عليك أن تسحق بلا رحمة أية ثورة يقوم بها السكان المدنيون أو أى عمل من أعمال الأرهاب أو التخريب يوجه ضد القوات الألمانية المسلحة •

وطمأنه الى أنه يمنحه تأييده كله فى هذا المجال •

وأصبح واضحا ان المقابلة قد انتهت ، فادى شولتتز التحية النازية من جديد واستدار وسار نحو باب الخروج • وأحس أن عينى هتلر ظلتا تحدقان فى ظهره الى أن بلغ الباب •

وفى الخارج التفت شولتتز نحو بورجدورف لعله يجد لديه اشارة مطمئنة .. ولكنه لم يجد ما يحث عنه .

فقد كانت الدقائق القليلة التى عاشها ذلك الضــــابط البروسى القصير القامة منذ لحظات ، من أعنف التجارب التى هزته فى حياته لقد قطع نصف قارة على أمل أن يجد زعيما فى هذا المخبأ يجدد ايمانه بالسلاح الألمانى . ولكن ديتريش فون شولتتز وجد رجلا مريضـــا بدلا من الزعيم ، ووجد الشك بدلا من الايمان ..

ولسوف يتوقف الكثير فى الأيام القادمة على خيبه الأمل التى انتابت ذلك الجنرال البروسى هذا الصباح .



في قصر لو كسمبرج الفخم بباريس ، اقام الجنرال فيلدمارشال هوجو شبيرلى القائد العام للطيران الالمانى فى الجبهة الغربية ، مادبة عشاء تكريما للجنرال فالتر فارليمونت مدير العمليات بالقيادة العليا لهتلر •

وكان فارليمونت قد قام بجولة تفتيشية فى الجبهة الغربيةوشاهد فشل الهجوم المضاد الذى شنه الألمان فى « افرانش » بهدف سد الثغرة التى فتحها الحلفاء فى خطوطهم والتى بدات دبابات الجنرال الأمريكى باتون تتدفق منها على « بريتانى » •

وكان الجنرال فارليمونت فى ذهول للتناقض الصارخ بين ما لمسه من عدم مبالاة وتعلق بالأوهام لدى رجال القيادة الالمانية فى باريس وبين الهول الذى شاهده بعينيه فى جبهة نورماندى التى لا تبعدأكثر من مائتى ميل عن القصر التاريخى الرائع الجمال الذى دعى لتناول العشاء فيه على ضوء الشموع • ووصل ذهوله الى قمته عندما رفع مارشال الطيران البدين شبيرلى كأسه ودعا الى شرب نخب « مدينة باريس التى سوف يرفرف عليها العلم الالمانى لمدة ألف عام » فقدكانت تلك الجملة تجسد الهوة السحيقة القائمة بين مايدور فى اذهان القواد الألمان وبين الحقائق الرهيبة المسيطرة على جبهات القتال •

ولكن النخب الذى دعا شبيرلى الى شربه ، وان كان لا يتمشى مع الواقع ومع سير الاحداث ، الا أنه كان يعبر فى صدق عما يتمناه عدد كبير من الضباط وحتى الجنود الألمان الموجودين فى باريس • فقد كانت سنوات الحرب التى عاشوها فى العاصمة الفرنسية هى أجمل سنوات حياتهم •

الضابط المحب للموسيقى «الفريد شلينكر» الذى يتولى الترجمة فى المحكمة العسكرية التى تحكم بالاعدام رميا بالرصاص على عدد متزايد من الباريسيين يوميا ، لم تفته حفلة واحدة فى أوبرا باريس خلال ثلاثة أعوام كاملة .

فالاستماع الى موسيقى الأوبرا كان يبعد عن ذهنه أصوات صراخ ضحايا المحكمة الذين كان يتعين عليه أن يحضر تنفيذ أحكام الاعدام فيهم في «مونفالريان» • وفى ذلك المساء ، فى صالة الطعام الخافتة الاضاءة فى فندق « كريون » الذى اتخذه القضاء العسكرى مقرا له ، سوف يتناول طبق طعامه المفضل « الكرشة ألا كونيجزبرج » .. أى الكرشة المعدة وفقا للأسلوب المتبع فى مدينة كونيجزبرج ..

وعلى بعد أميال قليلة من فندق « كريون » فى الفيلا المصادرة المخصصة لاقامته فى ضاحية « نييى » كان الكولونيل هانز جاى يستعد للخروج وقضاء السهرة فى ملهى «شهرزاد» ويمنى نفسه بالتوفيق فى اغراء الشابة الجميلة التى سوف تسهر معه هذه الليلة• فمند أن وصل هذا البطل الدولى السابق فى ركوب الخيل الى باريس فى سنة ١٩٤٣ ، اصبح شخصية مرموقة فى حياة الليل فى باريس وفى هذه الأيام الأولى من شهر أغسطس ، لم يكن يجد مايدعوه الى التفكير فى تغيير نظام حياته اللذيذ ..

وراء غابة بولونى وفى المنزل رقم ٢٦ بشارع رفاييل فى قلب حى « باسى » السكنى ، كانت فتاة شقراء جميلة عمرها ٢٤ سنة تتولى اضاءة الشمعدانات الفضية الثقيلة فى المنزل الباريسى لفرنسوا كوتى

ملك العطور الفرنسية .. مثلما فعلت بانتظام كل مساء منذ أربعة أعوام ، فقد كانت أنا بيللا فالدنر خلال هذه الاعوام الاربعة هى المضيفة الرسمية-في هذا المبنى الفاخر الذى أصبح مقر الحاكم العسكرى لمدينة باريس . وفى صالونات هذا القصر شاهدت صفوة شخصيات الرايخ الثالث ، وايطاليا الفاشستية ، وفرنسا فيشى يروحون ويجيئون . وكانت أقبية النبيذ والحجرات الملحقة بالمطابخ التى تشرف عليها تحتوى على أندر أنواع الخمور الفرنسية وأرقى أصناف الكافيار الروسى وكافة الأطعمة الممتازة الأخرى التى استطاعت اوربا المحتلة أن تزود بها محتليها . وكانت السنوات الأربع الماضية بالنسبة لهذه الشابة الحسناء أشبه بحلم جميل . كانت لها سيارتها الخاصة وسائقها ، وكانت من زبائن احدى خياطات باريس الشهيرة وكان لها فوق هذا كله مقصورة خاصة فى دار الأوبرا من المقصورات المخصصة للجنرالات .

ولم يكن الألمان فقط من امثال أنا بيلا فالدنر وهانز جاى هم الذين كانوا يتمنون فى ذلك المساء لو أن الصليب المعقوف النازى ظل مرتفعا فوق العاصمة الفرنسية مدة الف عام .. فبعض الباريسيين ايضا كانوا يشاركونهم أمنيتهم .

فانتوانيت شاربونيه الفتاة السمراء ذات الخمسة والعشرين عاما والشعر الكستنائى ، بنت التاجر الباريسى المحترم الذى فقد احدى ذراعيه فى معارك « فردان » فى الحرب العالمية الأولى ، لم تكن ترى مايمكن أن يكون أسوأ فى الدنيا من أن تتحرر باريس .

أنتوانيت شاربونييه كانت تحب ضابطا ألمانيا ، وكان الغزاة الذين حققوا النصر فى عام ١٩٤٠ ، بنظراتهم الصارمة وصدورهم المنتفخة وشعرهم الأشقر ، يمثلون فى نظرها عالما احست فجأة بانها تود ان تعيش فيه .. عالما من القوة والجمال والرجولة .

وقد عاشت فى هذا العالم مدة أربع سنوات ، متحدية الجميع: أهلها ، واصدقاءها ، والعالم الذى نشأت وترعرعت فيه .. وبرفقة صديقها الألمانى الهاوبتمان - أى النقيب - هانز فيرنر استمتعت بالعهد الذهبى للرايخ الثالث فى باريس . وكان بعض مواطنيها يبصقون على الأرض أحيانا عند رؤيتهم لها متعلقة بذراعه ، متنقلة معه بين المباهج البائسة التى كادت تصبح حكرا للألمان ، كما أن بعض خطابات التهديد قد بدأت تصل اليها مؤخرا .. ولكن هيامها بهانز فيرنر وتشبعها بالتأثير المخدر للدعاية النازية ، جعلاها تظل على ايمانها بقدرة هتلر على صنع المعجزات .

لم تستطع أن تتصور أن الحياة التى تعيشها يمكن أن تنتهى .. وفى هذا المساء سوف ترقص بين ذراعى هانز فيرنر فى «المونسنيور» .. وبينما كانت تكمل زينتها استعدادا للخروج فى شقتهما بشارع « موزار » كانت تبتسم فرحا فى انتظار السهرة الهنيئة التى تتوقعها

ولكن من بين جميع الألمان الذين كانوا يستعدون للاستمتاع بليلة أخرى من الليالى القليلة المتبقية لهم فى باريس المحتلة ، ربما كان العريف هلموت ماير أكثرهم ترقبا لهذه السهرة . كان ماير هو مراسلة ديتريش فون شولتتز ، أى الجندى المكلف بخدمته . وكان الجنرال قد تركه ينتظره فى باريس . وفى هذا المساء سوف يشاهد ماير فيلما سينمائيا لأول مرة منذ عشرة أشهر . وسيكون فيلما المانيا يعرض فى سينما « فندوم » بشارع الأوبرا ، وهو الحلقة الأولى من سلسلة افلام « عائلة بوخهولتز » . وكان ماير يرجو الا يعود شولتتز سريعا لأن الحلقة الثانية من هذه السلسلة لن تعرض قبل الاسبوع القادم وهو حريص على الا تفوته .



لكن الخيبة كانت تنتظر آمال ماير ، لأن ديتريش فون‌شولتتز كان قد أصبح فعلا فى طريقه الى المدينــة التى بات مستقبلها بين يديه . فقد غادر راستنبورج فى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم السابع من اغسطس . فى نفس القطار الذى جاء به اليها .

وفى هذه المرة رافقه الى المحطة أحد ضباط الصـــاعقة الشـــبان التابعين لفرقة « ألمانيا الكبرى » .. وعندما هم الجنرال بالصـــعود الى القطار ، أمسك الضابط الشاب بيده وتمتم فى حرارة :

ــ حظ طيب ياسيدى الجنرال كم اغبطك على فرصة الذهاب الى باريس !

ظل شولتتز يفكر فى كلمات الوداع التى قالها له الضابط الشاب بعد أن أصبح وحيدا فى حجرة نومه بالقطار ، ورأى فيما أعربت عنه من حماسة شيئا من السلوى والعزاء . فبعد أحداث ذلك اليوم الذى قضاه فى مقر القيادة العليا لهتلر ، لم يكن يتصور أن هناك فى الدنيا بأسرها من يمكن ان يغبطه على الذهاب الى باريس .

بعد الظهر كان قد استدعى الى مكتب «الجنرال ــ أوبرشت» ــ أى الفريق الأول ــ ألفريد يودل رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية الذى

مسلمه أمر تعيينه فى باريس المؤلف من خمس نقاط . وكان أمر التعيين يؤكد ماكان هتلر قد ذكره له .

انه ذاهب الى باريس بصلاحيات لم تعط رسميا من قبل لأى جنرال ألمانى سواء فى باريس أو أية مدينة أخرى خاضعة للرايخ . انه ذاهب بوصفه قائدا لقلعة محاصرة . وقد قال له يودل أن التعليمات التى يتضمنها امر التعيين هى التعليمات المبدئية فقط الصادرة اليه ، وان القيادة العليا سوف تبعث اليه فيما بعد بملاحق لها . فالأيام المقبلة سوف تكون أياما حاسمة ، وسوف يطلب منه ان يؤدى الكثير فى باريس .

وبينما كان شولتتز جالسا فى حجرة نوم القطار ، يفكر فيما سمعه .. بدأ يكون صورة ما عما سوف تتوقع القيادة العليا منه أن يفعله فى باريس . أخذ يدرك أنه سوف يطالب بتخليد اسمه وشرف عائلته عن طريق ابادة مدينة يبلغ عدد سكانها ثلاثة ملايين ونصف مليون .

وأحس شولتتز بالكآبة تغمره وهو يتطلع من النافذة الى أشجار الغابة التى كان القطار يسير فيها قبل أن يصل الى سهول بروسيا التى تؤدى به الى برلين .

لقد جاء الى هنا باحثا عن الأمل ، وها هو ذا يعود مهتزا ، متجها الى اداء مهمة أخذت الشكوك تساوره منذ الآن بشأنها . وأخرج من جيب صدره سيجارا كان الجنرال فيلد مارشال فيلهلم كايتل قدقدمه له بعد الغداء ، ولكنه لم يجد معه مايشعله به . فقام وخرج الى الممر الممتد أمام حجرات نوم القطار بحثا عمن يشعل له السيجار . على بعد مابين منه ، وجد رجلا مطلا من النافذة وهو يدخن سيجارا .

اقترب شولتتز منه ، وتبين انه أحد كبار رجال الصاعقة الذين حضروا الغداء فى مقر القيادة العليا معه ، وتذكر اسمه هو «روبرت لى» ٠

اشعل له «لى» سيجاره ، واخذايتجاذبان أطراف الحديث ،فأنبأه شولتتز بأن هتلر قد استقبله لاول مرة فى حياته هذا الصباح ، وبأنه قد عين لمنطقة باريس ، فهنأه لى بمنصبه الجديد وأخذ يحدثه عن الزيارات الممتعة التى كان هو قد قام بها لباريس فى اثناء الحرب ولكنه أضاف أن شولتتز سوف يجد باريس مدينة مختلفة بكل أسف عندما يصل اليها ، وان باريس أصبحت محتاجة الآن لصرامة وحزم احد قواد الميدان ٠

ثم قال « لى » أنه قد حصل على زجاجة قديمة فاخرة من نبيذ بوردو الفرنسى من مقر القيادة العليا ، وأنه يسعده أن يشترك فى شربها مع القائد الجديد لمنطقة باريس ٠

أحضر « لى » الزجاجة الى حجرة نوم شولتتز ، وبدأ الرجلان يشربان ٠٠

شربا أولا نخب الفوهرر ونخب نجاح شولتتز فى عمله الجديد ٠٠ وبعد ان تحدثا فى موضوعات مختلفة ، صارح «لى» رفيقه بانه هو الآخر قد اجتمع بهتلر فى ذلك اليوم ٠ وقال أنه قد استدعى ليعرض على الفوهرر صيغة قانون جديد فى النية اصداره ، كان قد كلف بوضعها أخيرا ٠ وقال أنه بعد أن أجريت عدة تعديلات على القانون ، تمت موافقة الفوهرر عليه بعد ظهر ذلك اليوم ، وسوف يصدر فى برلين خلال أيام قليلة ٠

وقال « لى » ان اسم القانون الجديد هو « اعتقال وحبس الاقارب » ٠٠ ثم شرح لشولتتز أغراض ذلك القانون ٠ فقال انه قد وضع خصيصا لمواجهة الظروف البالغة الدقة التى أصبحت المانيا تجه

نفسها فيها • فالرايخ ـ كما يعلمان ـ سوف يحتاج الى الولاء الذى لا يتزعزع لجميع جنوده من أجل كسب الحرب • وأضاف أن ما دعا الى التفكير فى اصدار القانون الجديد هو الحقيقة المؤسفة التى انكشفت مؤخرا والتى اظهرت أن بعض كبار القواد الالمان قد خذلوا بلادهم • فبعضهم قد استسلم وبعضهم قد أثبت عجزه عن اداء المهام المكلف بها . كما كانت هناك المؤامرة التى دبرت ضد هتلر .

واستطرد « لى » قائلا أن القانون الجديد قد وضع لمنع وقوع أمثال هذه الحوادث . فهو ينص على اعتبار أسر الجنرالات الألمان مسئولة من الآن فصاعدا عن أى نقصير يظهر منهم • أى أن هذا القانون يجعل من عائلات الجنرالات أشباه رهائن لدى الدولة ، تضمن حسن سلوك الجنرالات .

واعترف «لى» بعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجاره بأن اصدار هذا القانون هو اجراء بالغ التطرف ، وأن أحكام القانون هى بالضرورة شديدة الصرامة ، فهى تنص على أنه فى الحالات التى يصل فيها تقصير أى جنرال الى حد خطير ، ويستحيل على العدالة الالمانية أن تصل اليه بسبب وقوعه فى الأسر •• فان أفراد عائلته يحكم عليهم بالاعدام بدلا منه •

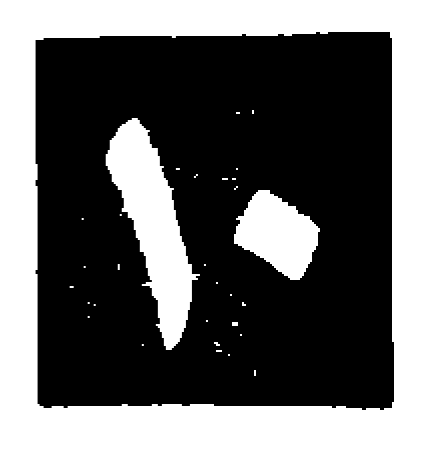
احس شولتنز بالغثيان بعد سماع هذه الكلمات ، وحاول عبثا أن يجد كلمات يواصل بها الحديث •• وأخيرا قال فى صوت منقطع: أنه اذا كانت المانيا سوف تلجأ الى مثل هذه التصرفات ، فانها تعود بذلك الى القرون الوسطى •

فتنهد « لى » وهو يرد عليه قائلا : نعم •• ربما •• ولكنه اعاد على مسامع شولتنز عبارة كان قد رددها مرارا أثناء الحديث ، وهى :يجب الا ننسى أن الظروف الآن غير عادية •

بعد ذلك ، انقطع الحديث بين الرجلين ، وما لبث « لى » أن استأذن في أن يأوى الى حجرته .

أغلق شولتتز على نفسه باب حجرته بعد خروج «لى» واستعد للنوم ثم فعل شيئا لم يفعله من قبل أبدا في حياته ، فبدلا من ان يتناول حبة منومة واحدة ابتلع ثلاث حبات مرة واحدة والقى بنفسه على سريره .

في الصباح سوف يستقل شولتتز قطارا آخر ، ينقله هذه المرة الى بادن ـ بادن . هناك سوف يودع زوجته وابنتيه ماريا أنجليكا ذات الأربعة عشر عاما وانا بربارا ذات الثمانية أعوام ، ومعهن الهبة التى ظل هذا الضابط البروسى المجرد من العواطف فى الظاهر ينتظرها طوال حياته .. ابنه تيمو البالغ من العمر أربعة أشهر .



فى طريقه من راستنبورج مقر القيادة العليا لهتلر ، الى بادن ـ بادن التى قرر الجنرال ـ لويتنانت (اللواء) ديتريش فون‌شولتنز التى قرر الجنرال ـ لويتنانت (اللواء) ديتريش فون شولتنز زيارتها ليرى أسرته المقيمة فيها ، قبل أن يسافر الى باريس ، لم يتوقف القائد الجديد لمنطقة باريس الكبرى الا فى برلين •

هناك ، نزل من القطار الخاص بالفوهرر ليجد فى انتظاره برقية تحمل توقيع الجنرال بورجدورف رئيس قسم شئون الضباط بالقيادة الألمانية العليا ، وتبلغه بانه قد رقى بناء على أمر خاص من الفوهرر الى رتبة « جنرال » أى « فريق » •

وطوال الليلة التى قضاها شولتتز فى القطار الذى أقله من برلين الى بادن ـ بادن ، ظل يفكر فى الأسباب التى دعت الى ترقيته هـذه الترقية المفاجئة • فقد كان يعلم ان القيادة العليا الألمانية لم يسبق لها أبدا أن عينت قائدا برتبة « فريق » على رأس حامية أية مدينة أو عاصمة ، وان جميع من تولوا قبله القيادة العسكرية فى باريس نفسها لم تزد رتبة أى منهم أبدا عن رتبة « لواء » •

وأخيرا قرر فون شولتتز أن يكف عن تعذيب نفسه بالتفكير فى هذا الموضوع ، عندما رأى القطار الذى يستقله يقترب من ضـواحى

بادن ـ بادن ·· ان زوجته أوبرتا وهى بنت ضابط وحفيدة جنرال سوف تشعر بسعادة ما بعدها سعادة هذا الصباح عندما تراه يحمل على كتفيه شارات الرتبة الجديدة التى أرتقى اليها ·

وظلت بنتاه تذكران لمدة طويلة الافطار الهائل الذى صاحب زيارة والدهما للبيت فى ذلك الصباح · فقد أحضر معه من راستنبورج لفة كبيرة تدعى « لفة الفوهرر » هى الهدية التى كان هتلر يقدمها لزوار مقره « وكر الذئب » فى تلك الأيام ·· وكانت تلك اللفة تحتوى على أنواع من المأكولات كان الألمان قد كفوا عن العثور عليها فى الأسواق منذ أعوام ·

ولكن البنتين لم يتح لهما أن تريا أباهما الا لفترة قصيرة جدا ذلك الصباح ، ففى حوالى الساعة العاشرة عانق فون شولتتز أفراد عائلته مودعا وغادر المنزل · فقد كان يريد أن يصل الى باريس فى مساء ذلك اليوم · ولم تصاحب رحيله أية مظاهر عاطفية من مظاهر الوداع ، فقد خدمت أسرة فون شولتتز العلم الألمانى جيلا بعد جيل وتعلم أفرادها كيف يكبتون آلام الفراق ·

وبالنسبة لأوبرتا فون شولتتز ، لم تكن باريس الاموقعا آخريؤدى فيه زوجها عمله · واذا كانت قد شعرت بأية مخاوف غير عادية فى هذا الصباح ، فقد كانت تلك المخاوف مخاوف نسائية محضة ، تعكس الفكرة الخاصة التى تحملها فى ذهنها عن باريس · فقدلاحظت أن زوجها أخذ معه ، وهو متجه الى منصبه الجديد فى العاصمة الفرنسية ملابسه المدنية علاوة على ملابسه العسكرية ·



في المدينة التى كان فون شولتتز يتجه اليها حاملا أوامر هتلر الخطيرة ، كان هناك شاب يغنى لنفسه فى صوت خافت وهو يركب دراجته فى شارع سان مارتان شبه الخالى من المارة .. كان عاشقا وكان متحمسا بكل كيانه لقضية أصبح يعرف الآن أن ساعة انتصارها قد دنت ، وهى قضية مقاومة الاحتلال .

وقد كان هذا الشاب ـ ايفون موروندا ـ من الذين انضموا الى ديجول منذ البداية ، فأصبح الآن من بين القلائل الذين يعتمد عليهم رئيس فرنسا الحرة اعتمادا كبيرا فى باريس .

وكان شارع سان مارتان ينحدر أمامه نحو جزء منخفض منه ،عندما سمع الشاب لهاث راكب دراجة آخر وراءه يجرى للحاق به . وفى اللحظة التى حاذت فيها عجلة دراجة القادم الخلفية عجلة دراجة موروندا الامامية ، مد الراكب المجهول ساقه وركل فى عنف دراجة موروندا ركلة جعلت عجلتها الأمامية ترتطم بحافة الرصيف ، فاختل توازن موروندا ، وانكفأ على يدى الدراجة فى طريقه الى الوقوع فوق العجلة الأمامية .

وبينما كان موروندا يتدحرج واقعا سمع وراءه صوت سيارة تزيد من سرعتها فجأة ، كما سمع بعد ذلك مباشرة الصوت الحاد الذى

أحدثته اطارات السيارة وهي تحـاول أن تصــعد فوق الرصيف ، فغرس موروندا أصابعه في الحائط محاولا أن يستند اليه وهو يهم بالوقوف .

ووقعت الدراجة من تحته بينما رأى الكتلة السوداء تندفع نحـوه وهو شبه ملتصق بالحائط ، وتمر فوق نفس المكان على الرصيف الذى كان المفروض أن يكـون قد ظل واقعـا فيه ، وحطمت السـيارة في اندفاعها اطارى دراجته . وأحس بحافتها تلامسه في اللحظة الخاطفة التي مرت خلالها به ، ولم تتوقف السيارة وانما على عكس ذلك زادت من سرعتها ثم انحدرت يسارا الى شارع سان دبيس ، واختفت عن أنظاره .

وكان موروندا لا يزال يرتعش عندما وصل اليه أحد المارة وأخـذ يساعده على الوقوف ، وهو يصيح : « يا الهى .. لقد حاولوا قتلك ! »

ترك موروندا دراجته وواصـل سـيره على قدميه الى المكان الـذى سيجتمع فيه بثلاثة شبان آخرين . عندما اقترب منهم كف الشبان الثلاثة عن الكلام ، وفي أمارات الدهشة التى ارتسمت على وجوههم ، قرأ موروندا تأكيد ماكان يشك فيه .

كان الشبان الثلاثة ينظرون اليه كما لو كان ميتا قد خرج من قبره . وكانوا هم وحدهم من بين جميع أهالي باريس الذين يعرفون أنه في هذا الصباح وفي هذه الساعة بالذات سوف يكون أحد القادة الديجوليين ويدعى ايفون موروندا ، راكبا دراجة وسائرا في شـارع سان مارتان في اتجاه نهايته . وكان الثلاثة من الشـيوعيين ، وكان موروندا واثقا من انهم قد حاولوا منذ لحظات قتله .

وفي حي آخر من أحياء باريس ، وفي شـقة عامل « سـمكرة » متواضعة كان شيوعى آخر يستعد لأكبر حدث في حياته التى كانت قد قطعت عندئذ ستة وثلاثين عاما ، كان اسم هذا الشيوعى هنرى تانجي . ولكن اسمه الحركى كان « الكولونيل رول » وكان منهمكا

فى التحضير للثورة المسلحة التى أصدر ديجول أوامره بمنع قيامها فعندما تقوم تلك الثورة كان هو الذى سوف يتولى قيادتها .

فمنذ اليوم الذى عهدت فيه لجنة الأعمال العسكرية التابعة لحركة المقاومه السرية ، والتى يسيطر عليها الشيوعيون ، الى هذا الرجل الهادىء الصوت ، ابن البحار ، المولود فى أقليم بريتانى ، بالقيادة العسكريه لقوات المقاومة فى باريس .. وهو يعمل ليلا ونهارا مع رجاله فى الاستعداد للثورة .

والواقع أنه كان يستعد للثورة بوجه عام طوال حياته ، فقد اضطر الى قطع دراسته وهو فى الثالثة عشرة من عمره ليعمل ، ولكنه واصل تعليمه ليلا . وعندما بلغ الواحد والعشرين انضم الى الحزب الشيوعى وفى أيام الجبهه الشعبية الصاخبة كان قد فصل على التوالى من مصانع سيارات رينو وستروين وبريجيه بسبب نشاطه النقابى . وقد حارب فى اسبانيا خلال الحرب الأهلية . وعندما نشبت الحرب العظمى جرح أثناء خدمته فى لواء مشاة سنغالى ، وبمجرد أن شفى من اصابته التحق بحركة المقاومة السرية ولم يتوقف عن القتال منذ ذلك الحين

كان شيوعيا مخلصا ومنتظما ، وفرنسيا وطنيا ، وقائدا شجاعا ، حتى أعداءه السياسيين — وكانوا كثيرين — كانوا يعترفون له بالبسالة . ولم يكن أى من هؤلاء الاعداء يشكل تهديدا لمطامع « رول » مثل القيادة الديجولية فى المدينة التى يمثلها رجال مثل ايفون مورندا راكب الدراجة الذى كان يسير فى شارع سان مارتان .

وان يشك الديجولى مورندا فى ان الشيوعيين قد حاولوا اغتياله . وأن ينظر رول الى الديجوليين على انهم أكبر خصومه السياسيين .. كانا فى ذلك اليوم من امارات الانقسامات السياسية الحادة التى اخذت تهدد بتمزيق حركة المقاومة السرية فى الوقت الذى كانت تقترب فيه من اروع ساعاتها .

وكان جوهر الانقسام يكمن فى تصميم الشـــيوعيين على أن يواجهوا بأنفسهم الموقف فى باريس ·

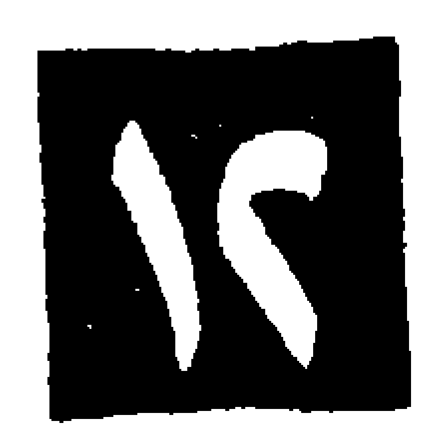
كان روجيه فييون ــ احد كبار القادة الشيوعيين ــ يقول :
« ان الوضع فى باريس لايعتمـــد على الديجوليين ، وانما على جماهير المدينة وعلى قدرتنا على تعبئة هذه الجماهير » ·

ولم تكن تلك الجماهير تتألف كلها من الشيوعيين بأى حـال من الاحوال · ولكن أغلبيتها كانت من الفرنسيين الوطنيين الذين لم يكونوا يطلبون شيئا غير ان تتاح لهم فرصة محاربة الالمان · فباريس فى ذلك الوقت كانت قد بدأت تتململ تحت أقدام محتليها ، وتشعر باللهفة الى محو عار السنوات الاربع الماضية والى العودة الى سيرتها التقليدية فى الثورة على الضيم ، ولم يكن الشيوعيون يحتاجون الى اكثر من خطة ذكية لايصال المدينة الى حافة الثورة المسلحة ·

وكان لدى الشيوعيين الخطة · وعما قريب سوف يبدأ رجـل شيوعى وحيد معه مسدس وثلاثون من الرجال الشجعان اضرابا فى ورش السكك الحديدية فى « فيلنيف » يكون الاول فى سلسلـة من الاضرابات تشل حركة المدينة وتدفعها الى حافة الثورة التى كان الشيوعيون يريدونها ، وكذلك عدد كبير من الفرنسيين الوطنيين ·

وكانت الخطة تنطوى على اخطار لا يمكن تقدير مداها بالنسبة لباريس وبالنسبة لسكانها وحتى بالنسبة لفرنسا بأجمعها · وقد يصبح ثمنها هو تحطيم باريس · ولكن أولئك الذين كانوا يريدون تلك الثورة كانوا على استعداد لدفع الثمن الغالى ·

وعما قريب سوف يضرب هذا الشيوعى القادم من أقليم بريثانى احدى الموائد بقبضته ويقسم على أن باريس تستحق أن تزهق فى سبيلها مائتا الف من الارواح ·



على راس السلالم الرخامية للقصر الفخم الذى يقيم فيه ـ ٢٦ شارع رفاييل ـ وقف الجنرال هانز فون بوينبرج ـ لنجسفلــــد ينتظر فى ذلك المساء الدافىء من أمسيات شهر أغسطس ، ضيفه القادم لتناول العشاء وفى اثناء انتظاره كان يتبادل الحديث مــع الملازم الشاب الذى كان يقف بجانبه وهو ياوره الكونت دنكفارت فون أرنيم ، وكانت صلات المودة قد توطدت خلال الثمانية عشر شهرا التى قضياها معا فى باريس بين الجنرال المسن الذى يتنوهته على نحو فظيع احدى الدبابات أمام ستالينجراد، وبين النبيل الشاب الواقف الى جواره •

والواقع انه خلال تلك الفترة لم يكـــن حكم اى جزء من اجزاء الاراضى الشاسعة التى استولى عيها الرايخ الثالث ، أيسر من حكم مسحة الثلاثين ميلا مربعا التى تتألف منها منطقة باريس الكبرى التى كان الجنرال بوينبرج ـ لنجسفلد يتولى القيادة فيها •

شيئان اثنان فقط قد عكرا صفو هذه الفترة بالنسبة للجنرال أولهما هو وصول ضابط من رئاسة هيئة اركان الحرب فى برلين فى الرابع عشر من مارس سنة ١٩٤٤ ليطلب منه ملفا كان قد ظل مهملا فى مكتبه منذ اعداده فى اغسطس سنة ١٩٤٢ بعد غارة الحلفاء

على « ديبب » مباشرة . وكان عنوان ذلك الملف هو «اجراءات الدفاع عن منطقة باريس فى حالة تعرضها لهجوم بالمظلات عليها » . وقد عاد به الضابط معه الى برلين . وبعد ذلك بعشرة ايام ، رجع الملف الى مكتبه بعد أن وجدت رئاسة هيئة اركان الحرب الخطة التى يتضمنها « منطوية على نواحى نقص جسيمة » وأصدرت اليه اوامرها بوضع خطة أخرى اكثر شمولا بكثير ومتضمنة لترتيبات « احداث اكبر قدر ممكن من الدمار فى منطقة باريس فى حالة وقوع هجوم معاد عليها » .

أما الشىء الآخر الذى عكر صفو اقامة بوينبرج ـ لنجسفلد فى باريس ، فقد كان اخطر من الاول بكثير فى رأيه . وكان هو مؤامرة ٢٠ يوليو . فعلى الرغم من انه لم يكن عضوا اصليا فى جماعة المتآمرين الا انه كان قد امر قواته باعتقال جميع رجال الصاعقة والجستابو الموجودين فى باريس وعددهم ١٢٠٠ رجل عندما وصلت كلمة السر التى حددت موعد الشروع فى تنفيذ المؤامرة الى مقر قيادة الجنرال فون شتولبناجل القائد العام السابق فى فرنسا . ومنذ اللحظة التى سمع فيها بعد ذلك فى مساء اليوم نفسه صوت هتلر الحاد منطلقا من اجهزة الراديو ، ظل فى انتظار عقابه .

وقد وصله ما كان ينتظره فى الثالث من أغسطس ، فى صورة برقية مقتضبة من مقر القائد العام للجيوش الالمانية فى الغرب ، تنبئه بأنه قد اوقف عن عمله كحاكم عسكرى لباريس وبأن الجنرال ديتريش فون شولتتز قد حل مكانه .

ولم يكن بوينبرج ـ لنجسفلد وحفنة الرجال المحيطين به يعرفون شيئا عن الرجل الذى تقرر ان يخلفه فى منصبه غير ما اعلنته السمعة التى سبقته الى باريس ، وهى انه نازى مخلص وبروسى مطيع شديد الدقة . ولكن جنود حامية باريس كانوا يقرنون اسم قائدهم الجديد فى احاديثهم الهامسة عنه باسماء روتردام وسباستوبول

ووارسو ، وهى المدن التى لجأ الجيش الالمانى الى اقصى العنف في غزوها .

ورأى الجنرال بوبنبرج ـ لنجسفلد ضيفه البدين القصير يصل الى باب القصر مساء ذلك اليوم : التاسع من اغسطس سنة ١٩٤٤ في السيارة « الهورش » المخصصة له ، وعندما سمعه يصرخ «هايل هتلر » في الحارس الواقف امام باب القصر ردا على تحيته ، ايقن أنه فعلا من رجال النازي المتطرفين . وتمتم لياوره فون ارنيم وهو يراه صاعدا السلالم نحوهما في خطوات عسكرية صارمة : « يبدو انه شديد الوعورة » !

وداخل القصر كان ستة من كبار الضباط يجلسون فى الصالون الفاخر ينتظرون فى لهفة لقا ذلك الرجل القصير ودراسته وبدا لهم متعاليا وجافا وهو يتعرف بهم . والواقع انه ما كان يمكن ان يعجب شيء فى أولئك الضباط التابعين لحامية المدينة المرفهة ، الجنرال الذى أمضى الجزء الاكبر من سنوات الحرب بين وحول روسيا .

على المائدة ، روى شولتتز فى ايجاز قصة زياته لراستنبورج ..وبينما كان يجيل نظره فى الرجال الذين جلسوا يستمعون اليه فى صمت ، أحس بالوحشة التى سوف تظل ملازمة له طوال مدة اقامته في باريس ، تلتف من حوله فمنذ ذلك اللقاء الاول بدأ احساس متبادل بعدم الثقة ينمو بين القائد الجديد وبين اعضاء هيئة قيادته .

بعد ان استمع فون ارنيم الى ماروه شولتتز ، لم يعد هناك أى شك لديه حول النوايا التى يضمرها هتلر لباريس . وبقى سؤال واحد في ذهن الكونت الشاب هو :

هل يساعد هذا الرجل الصارم الذى انضم اليهم الليلة هتلر فى تنفيذ تلك النوايا ؟

وخشى فون ارنيم ان يكون قد عثر على جواب لسـؤاله فى الحديث الخاص الذى دار بين الجنرالين بعد العشاء . والذى لم يحضره احد غيره .

كان رد بوينبرج ـ لنجسفلد على الملاحظات القاسية التى أبدتها برلين على خططه هو انه اقترح اقامة خط دفاعى امام باريس يمكنه بالقدر المناسب من المدفعية وبخمسة وعشرين الف جندى ان يشكل حاجزا منيعا على الطريق الى باريس . وكان من شأن هذه الخطة سحب المدافعين عن باريس من داخل باريس نفسها . كما انه لم يضع اية ترتيبات للقيام بأية أعمال نسف كبيرة فى العاصمة .

والان ، وذكرياته الخاصة عن ستالينجراد تؤرقه .. أخـذ بوينبرج ـ لنجسفلد يحث شولتتز على أن يتبع خطته وان يتحاشى دوران القتال فى المدينة نفسها ورجاه الا يقدم على أى عمل من شأنه ان يسبب دمارا لايمكن اصلاحه لباريس .

وقد حاول فون أرنيم أن يعرف تأثير هذه الكلمات على شولتتز ولكنه فشل فى ان يعثر فى وجه الجنرال الصارم على اى تعبير .

وبعد دقائق ، انصرف شولتتز .. وفى الردهة الخارجية وجد « مراسلته » الرقيب هيلموت ماير فى انتظاره ، فأصدر اليه اول أوامره فى قيادته الجديدة . قال له : « جهز لى غرفة نوم فى فندق ميريس » .. ثم التفت الى مضيفه الذى كان فى وداعه واضاف فى لهجة ربما لم تخل من سخرية خفيفة : « ان الايام القادمة ياسيدى الجنرال سوف تجعلنى فى حاجة الى مقر قيادة لا مقر اقامة »

وبينما وقف بوبنبرج ـ لنجسفلد وياوره عند قمة السلالم يراقبان السيارة « الهورش » وهى تبتعد فى اتجاه غابة بولونى ، امسك الجنرال بذراع ياوره الشاب وهو يقول :

ـ صدقنى يافون اريم •• لقد انتهت الى الابد ايام باريس الحلوة !



بالنسبة لبيير ليفوشو ، كانت الأيام الحلوة قد انتهت في اللحظة التى حطم فيها رجال الجستابو باب الشقة التى كان مجتمعا فيها مع عدد غير قليل من مساعديه مساء السابع من يونيو •• والقوا القبض عليهم جميعا ••

وكان ذلك اكبر نجاح حققه الجستابو فى باريس منذ اربع سنوات ، لأن بيير كان قائد المقاومة السرية فى باريس ؛ ولان الذين كانوا مجتمعين معه كانوا من ابرز زعماء حركة المقاومة •

وقد كان نجاح الجستابو هذا هو الذى اتاح للقائد الشيوعى الكولونيل رول ان يحل محل بيير في القيادة • وكان بيير قد شكا قبل اعتقاله بايام قليلة من ان الشيوعيين يكادون يغرقونه ••

وهو يرقد الآن محطم الجسم منهوك القوى بعد أيام من التعذيب المتواصل فوق كيس من القش فى زنزانة مظلمة ، يترقب سماع صوت معين فى الليل •

كان ذلك الصوت هو صوت الرنين المعدنى لعربة قهوة تسير على عجلات من حديد • فقد كان لصوت تلك العربة وهى تحتك بأرضية الممر تحته بأربعة طوابق معنى خاص لدى بيير ولدى نزلاء سجن « فريسن » الآخرين الذين يبلغ عددهم ٢٩٨٠ معتقلا •

ان صدور ذلك الصوت يعنى ان قافلة اخرى من المساجين سوف تغادر سجن « فريسن » فى ذلك اليوم الى معسكرات الاعتقال فى المانيا ..

وتتوتر أعصاب بيير عند سماع الصوت ، ثم ينصت فى انظلام الى أصوات أبواب وهى تفتح واحدا بعد الآخر فى ضجة عالية .. وهى أبواب الزنزانات التى تضم الرجال الذين اختيروا ليكونوا ضمن القافلة .

ان حراس السجن يقدمون فى ظلام ما قبل الفجر فنجان قهوة الى كل معتقل من الذين سوف يتم ترحيلهم ، هو آخر مايتناوله فوق ارض فرنسا .

ولم تكن أعصاب بيير تهدأ الا بعد أن يسمع صوت عربة القهوة وهى تمر دون توقف بباب زنزانته .

ورأى بيير خيوط النور الخافتة الاولى تشرع فى تبديد ظلام السماء فى الخارج ، فتنفس الصعداء .

لقد جاء الفجر اذن ، واصبح فى وسعه ان يطمئن الى ان عربة القهوة لن تحضر الى بابه هذا اليوم .. العاشر من اغسطس .

وادرك أنه سوف يقضى يوما آخر فى سجن « فريسن » هو يومه الرابع والستون ، يوما آخر لايرحل فيه الى « بوختفالد » أو « دخاو » أو غيرهما من المعتقلات الالمانية ذات الشهرة الرهيبة .. يوما آخر يزداد خلاله اقتراب جيوش الحلفاء من باريس ، وهى حاملة معها الامل فى انها قد تحرره بطريقة ما قبل ان يتحرك قطار آخر الى المانيا ، يكون هو فيه فى هذه المرة .

وكان كل صباح من أيام اغسطس هذه يحمل لجميع مساجين الجستابو فى باريس نفس العذاب الذى يحمله لبيير .. نفس المزيج من الامل والخوف .

كانوا أكثر من سبعة الاف سجين ينتظرون فى سجون باريس ؟ وكانوا قبل ذلك صفوة أعضاء حركة المقاومة السرية .

ولكن الغريب مع ذلك أن بعض مساجين الجستابو كانوا يتوقون الى الترحيل الى المانيا ويعتبرونه مصدرا للاطمئنان .

فقد كان هناك كثيرون يعتقدون ـ مثل الصحفية ايفون بانيين نزيلة سجن « فريسن » ـ ان الذين سوف يتقون بعد سفر آخر قافلة ، سوف يعدمون رميا بالرصاص .

ولرجال مثل الكابتن فيليب كوين ومثل لويس أرمان كان أى شيء يبدو افضل من العيش فى ظل التهديد اليومى بالتعرض لتعذيب جديد على ايدي الجستابو .

وقد كان كوين وارمان نزيلين جديدين فى سجن « فريسن » .

كان كوين هو نائب رئيس المخابرات البريطانية السريه فى فرنسا ، وكان أرمان موظفا بالسكك الحديديه ، وقد نظم شبكة لحركة المقاومة السرية داخل سكك حديد فرنسا . ولم يكن الجستابو قد انتهى بعد من عصر آخر قطرة من المعلومات من جسميهما اللذين هدهما التعذيب .

وكان كل يوم جديد يحمل بالنسبة لهما احتمال اخراجهما من الزنزانة لنقلهما الى حجرات التعذيب بالمقر الرئيسى للجستابو فى شارع « سوسيه » .

واستطاع ارمان أن يسمع صيحة خافتة تتردد فى السجن صاعدة من الشوارع فى الخارج . كانت صيحة حفنة من الباريسيين الشجعان يحاولون تشجيع المساجين بصراخهم : « لن تنقلوا من هنا » .

ولكن هذه الصيحة لم تحمل أى سلوى أو تشجيع لأرمان المعذب . فلم يكن هناك فى ذلك الصباح ما يمكن أن يسعده أكثر من أن يعرف أنه قد يغادر « فريسن » ..

* *

على بعد أميال قليلة فقط من سجن « فريسن » ولكن فى عالم مختلف تماما عن عالمه ، وقف رجل بدين أمام النوافذ العريضة لمنزله يحاول أن يحصر فى ذهنه جميع الالمان الذين يعرفهم فى باريس .

وكان ذلك الرجل - وهو راوول نوردلنج القنصل العام للسويد - يعرف كثيرين من الألمان .. فقد عمل مدة اربع سنوات قبل التحاقه بالعمل الدبلوماسى مديرا لاحد مصانع بلاده التى كانت تبيع معدات للجيش الالمانى ، كما أنه كان ضيفا مستديما فى جميع الحفلات والاستقبالات الرسمية التى يقيمها الالمان فى باريس بوصفه عميد السلك القنصلى فيها .

وكان نوردلنج يستعرض معارفه من الالمان ليكتشف من بينهم من يستطيع أن يقوده الى المانى معين كان يبحث عنه بالذات ، ويهمه ان يلقاه فى ذلك اليوم ، وكان لايعرف الالمانى الذى يسعى الى الوصول اليه الا باسم « بوبى » ولم يكن قد التقى به غير مرة واحدة فى سنة ١٩٤٢ فى شرفة مقهى « شى فرنسيس » فى ميدان « الما » .

وكان قد عرف كلا منهما بالآخر واحد من الالمان القلائل الذين يثق نوردلنج بهم ، وهو رجل أعمال من برلين كان القنصل السويدى يعتقد أنه على صلة « بالأبفير » - جهاز المخابرات العسكرية الألمانى .

وكان صديقه ذاك قد قال له بعد أن غادرا المقهى :

- اذا أردت فى أى وقت ان تفتح لك أية أبواب مغلقة فى باريس ، فاتصل ببوبى ..

وبما أن ذلك كان هو مايـريده راوول نوردلنج بالضبط في هـذا الصباح ، فقد أخذ يعصر ذهنه محاولا الاهتداء الى من يمكن أن يقوده الى « بوبى » •

فقد كانت هناك أبواب مغلقة يود الآن فتحها . هي ابواب زنزانات بيير ليفوشو ولويس أرمان وبقية المعتقلين السياسيين في باريس •

كان نورد لنج يعرف ان رجال فرق الصاعقة في مدينتي « كن » و « رين » قد قتلوا مساجينهم قبل ان ينسحبوا من المدينتين ،وكان واثقا من أن الشيء نفسه سوف يحدث في باريس اذا اضطر الألمان الى التراجع عنها • ولذلك كان يود لو يستطيع اقناع السلطات الالمانيـة بالافراج عن المساجين السياسيين قبل أن يزداد الموقف حرجا •

ولم تكن مساعيه في هذا الصدد قد حققت أى تقدم حتى ذلك الوقت ولكن نوردلنج قرر الان أن يتصل بالقائد الجديد للمدينة • غير أنه كان يريد من يمهد له الطريق ، وكان واثقا من ان « بوبى » — لو استطاع العثور عليه — هو أفضل من يفعل ذلك له •

أما أميل بندر الملقب ببوبى ، فقد كان في تلك اللحظة يحزم آخر حقائبه في الشقة المصادرة التي يقيم فيها في رقم ٦ شارع « يولر » • بعد ساعات سوف يغادر باريس •

لقد تلقى أمـرا من رئيسه الكـولونيل — أى العقيد — فرايدريش جارته مدير المخابرات العسكرية الألمانية في فرنسا ، بأن يكون في « سانت مونهو » قبل هبوط الليل • ولكن بندر كانت لديه مشروعات أخرى

كان في نيته أن يستغل تصريح المرور الخاص برجال المخـابرات الذى يحمله للسفر بالسيارة الى سويسرا في نفس ذلك اليـوم ، ليلتقى في زيوريخ بعشيقته ، ويعتبر أن الحرب قد انتهت بالنسبة له •

وكانت تلك النهاية ستكون حزينة بالنسبة لهذا الرجل ذى الخمسة والأربعين عاما الذى اشترك فى الحرب الأولى كطيار .

فتحت ستار انه يمثل احدى شركات بيع الورق السويسرية كان قد بدأ يطوف باريس فى خدمة المخابرات الألمانية منذ ١٨ يونيـــو سنة ١٩٤٠ .

وكان مكلفا فى بادىء الأمر بأن يتغلغل فى الأوساط التجـــارية الفرنسية ويقدم تقارير عنها .

ثم عهد اليه بعد ذلك بأن يبحث عن التحف الثمينة ويصادرها، لبيعها فى سويسرا بالعملات الصعبة التى كان جهـاز المخـــابرات الألمانية يحتاج اليها ليواجه طلبات أعمال التجسس الضخمة التى كان يقوم بها والتى كانت تشمل الدنيا بأسرها .

غير أن هذه لم تكن كل أنواع النشاط التى كان بندر يمارســـها .. فمنذ عام ١٩٤١ كان قد أصبح عضوا رئيسيا فى شبكة سريـــة داخل جهاز المخابرات العسكرية الالمانى ، تعمل ضد النازية .

تلقى بندر محادثة نوردلنج التليفونية قبل دقائق قليلة فقط من الموعد الذى كان ينوى فيه مغادرة الشقة . وكان القنصل السويدى قد توصل أخيرا الى الحصـــول على رقم تليفونه من ضـــابط آخر فى الجيش الألمـــانى هو أريش بـــوش ــ باســـتور فون كامبرفلـــد . وهو نمساوى كان يعمل سرا مع حركة المقاومة السرية الفرنسية .

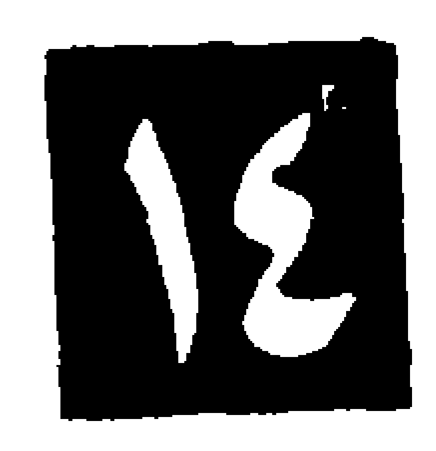
ورفض بندر أن يبقى فى باريس فى أول الأمر . .

ولكنه ــ أمام الالحاح الشديد للقنصل السويدى ــ وافق فى النهاية على أن يؤجل رحيله « لبضعة أيام » يبذل خلالها كل جهد مســـتطاع للافراج عن المساجين ..

وقد برر بندر لنفسه موافقته على البقاء بانه سوف يظل أمامه رغم ذلك الوقت الكافى لاجتياز الحدود الى سويسرا .

غير أنه أخطأ التقدير خطأ جسيما فى هـذا الظن .. فبعد أسبوعين سوف يصبح اسيرا لدى الفرنسيين .

ولكنه خلال هذين الأسبوعين ، سوف يعوض المدينة التى لم تكن تعرف فيه الا رجلا محبا للملذات والسهرات الممتعة .. سوف يعوضها الى حد كبير عن التحف التى نشلها فى عفلة عنها من خزائنها العامرة بالكنوز .



بالنسبة للجنرال فالتر فارليمونت فان البقعة التى حولهادولف هتلر الى مقر القيادة العليا فى قلب غابات راستنبورج ببروسيا الشرقية ، بدت دائما وكأنها مدينة أشباح .

انه يقف وحده الآن فى غرفة الاجتماعات فى ذلك المقر ، بينما يغلف السكون الكامل الغابات التى تحيط به .

لم تعد الذئاب والحيوانات الأخرى تعكر سكون ليالى راستنبورج بعوائها ، بعد أن دفعتها حقول الألغام وأحزمة الأسلاك الشائكة المكهربة التى تحيط بمقر القيادة العليا الى الفرار بعيدا عن ذلك المكان

وقد حلت مجموعة جديدة من الأصوات فى مكان أصوات الحيوانات هى : أزيز اجهزة التهوية وتكييف الجو ، ونقر أجهزة استقبال وارسال البرقيات ، وقرقعة سماعات التليفونات وهى ترفع وتوضع بلا انقطاع على مدار الليل والنهار .. وكلها أصوات ترهق أعصاب فالتر فارليمونت وبقية المئات من الرجال الذين أصبحت حياتهم تدور حول الاجتماعين العسكريين اليوميين اللذين يعقدهما هتلر مع كبار رجال قيادته ، ويتخذ فيهما القرارات التى تحدد مجرى الحرب .

وكان هتلر يعقد اول هذين الاجتماعين اليومين عند الظهر ويعقد الثانى فى المساء ..

وكان فارليمونت ـ مدير العمليات بهيئة القيادة العليا لهتلر ـ قد عاد مؤخرا من الرحلة التفتيشية التى قام بها الى جبهة نورماندى، وقد حضر الى غرفة الاجتماعات ـ كعادته دائما بالنسبة لكل اجتماع ـ قبل نصف ساعة من موعد الاجتماع المسائى ، فقد كان هو المسئول عن التحضير لتلك الاجتماعات •

وكان فارليمونت يحمل تحت ذراعه اليسرى مجموعة من الأوراق ويحمل فى يده اليمنى الخرائط الملفوفة لهيئة أركان الحرب التى سوف يراجع عليها هتلر بعد بضع دقائق آخر تطورات الموقف •

فمنذ الثانى والعشرين من يوليو كان الجنرال فارليمونت قد كف عن حمل هذه الأوراق فى حقيبة يده الجلدية ، لأن كبريائه كان يمنعه من أن يخضع لعمليات التفتيش المهينة التى أصبح يقوم بها أعضاء حرس هتلر الخاص الواقفون بالبزة العسكرية الرمادية لفرق الصاعقة على باب المخبأ •

وفرد فارليمونت على مائدة الاجتماعات الخريطة الضخمة التى تبين الموقف العام ، والبطاقات التى رسمت عليها خرائط القطاعات المختلفة قطاعاً قطاعا ، والتى حددت على أوراق السلولويد الشفافة التى تغطيها آخر التطورات فى الجبهات المختلفة وفقا لأحدث المعلومات •

وقد حدث فى هذا الاجتماع شىء ، لم يكن قد حدث قط من قبل فى أى من الاجتماعات السابقة التى حضرها فارليمونت •

ففى ذلك المساء ، ولأول مرة منذ ٢١ يونيو سنة ١٩٤١ ، أزاح هتلر خرائط الجبهة الشرقية التى وضعها « الجنرال ـ أوبرشت » يودل رئيس هيئة أركان الحرب أمامه ، وركز اهتمامه أولا فى الموقف فى الغرب •

وبدا هتلر لأعوانه فى ذلك المساء كالوحش الهائج وهو يحدق لفترة طويلة فى الخرائط الممدودة أمامه .. ثم سحب من بينها واحدة وضعها على حدة .

فى منتصف تلك الخريطة كانت هناك كتلة سوداء كبيرة الحجم تغطى ثلاثة متعرجات عريضة لنهر السين . ومن تلك الكتلة كانت تخرج وتمتد كخيوط العنكبوت جميع الطرق المرسومة فى الخريطة .. كانت تلك الكتلة السوداء تتألف من باريس وضواحيها .

وأمسك هتلر بقلم فحم ، وأخذ يرسم به خطوطا حادة سريعة على الخريطة .

ثم قال وصوته يرتفع مع كل كلمة ينطقها :

ـ اذا أردنا الاحتفاظ بنهر السين يجب أن نحتفظ بباريس . ولذلك فسوف نصمد أمام باريس وفى باريس نفسها . لن نتخلى عن باريس !

واستطرد قائلا للجنرالات الذين أحاطوا به : ان ضياع باريس سوف يكون له تأثير مدمر على معنويات الجيش ، وعلى شعب ألمانيا ، وعلى العالم بأسره .

ثم شرع يصدر أول أوامره المباشرة بشأن الدفاع عن باريس ، بينما أخذ يودل يسجل بسرعة محمومة تلك الأوامر على ورقة أمامه .

قال الفوهرر أولا :

ـ أريد وضع الالغام تحت جميع كبارى السين الواقعة فى منطقة باريس بحيث يمكن نسفها فى أية لحظة .

ثم أضاف :

ـ ويجب أيضا شل جميع الصناعات فى المدينة

وأخيرا قال يودل :

ـ ويجب تزويد قائد حامية المدينة بكافة الامدادات المتوفرة .

ومضى هتلر يقول بعد ذلك :

ـ ان باريس يجب أن يدافع عنها حتى آخر رجل . بصرف النظر ن الدمار الذى قد يسببه القتال .

ثم صمت لحظة طويلة تساءل بعدها :

ـ وماذا يهمنا فى أن تدمر باريس ؟!

واستطرد قائلا :

ـ ان الحلفاء فى هذه اللحظة نفسها يدمرون مدننا فى طول ألمانيا وعرضها بقنابل طائراتهم .



كان يوم الأحد الثالث عشر من اغسطس بداية عطلة تمتد ثلاثة أيام فى باريس ، بمناسبة عيد صعود السيدة العذراء . وكان الجو حلوا فى صباح ذلك اليوم الى حد لا تعرفه الا باريس وخيالات الشعراء

وأخذ الباريسيون يستعدون منذ الصباح الباكر للاستمتاع بصفاء سماء ذلك اليوم وبشمسه المشرقة ، وخرجوا عشرات الآلاف الى الحدائق العامة والى ضفاف السين والى الضواحى ليلهوا ويمرحوا ، وقبل كل شيء لينسوا مخاطر معركة تحرير مدينتهم التى بدأ موعدها يقترب .

وقرر عدد غير قليل من محتلى مدينتهم الاشتراك معهم فى الاحتفال بيوم العطلة . وفى فندق « كريون » وضع الألمانى أوجين هومنز بعض الأطعمة فى لفة استعدادا لقضاء اليوم مع عشيقته الفرنسية على شاطىء « نوجان سور مارن » بالقرب من باريس ، كعادته كل يوم أحد .

وفى منزله الأنيق بشارع مانوتنسيون علق المركيز الفرنسى لويس دى فراكييه منظاره المكبر حول عنقه ، ووضع على صدره شارة حكم سباق الخيل الخضراء ، وارتدى قفازه الأبيض وقبعته الرمادية العالية وخرج ليركب العربة ذات اللونين الأحمر والأسود والعجلتين التى

يجرها حصان واحد ، حيث كانت فى انتظاره فى الخارج .. لنذهب به الى ميدان السباق فى « أوتاى » .

ولكن لم يكن فى باريس كلها من رحب بعطلة الاحد هذه ، مثل ذلك الرجل المفرط فى الطول الذى كان يرتدى لباس العمال الفرنسي الأزرق القصير جدا عليه ، والذى وقف فوق كوبرى « نانتير » يجيل بصره فى «السين» غربى العاصمة . فجأة وقع نظر ذلك الرجل الطويل على بطارية مدافع ألمانية مضادة للطائرات فوق جزيرة « شاتو » فتسللت الى عينيه نظرة حقد غاضبة ، لم يلحظها الا رفيقه النحيل والصبى الذى كان يقف بينهما .

قبل ذلك بشهرين ، فى الساعة الحادية عشرة والربع من مساء يوم ٢٨ مايو ، كانت تلك البطارية نفسها قد اسقطت طائرة الملازم الامريكى الطيار بوب وودرام من سماء باريس . وقد خرج اليوم فى لباس العمال لأول مرة منذ أن التقطه أعضاء حركة المقاومة السرية بعد سقوط طائرته ، وأخفوه .

وكان الرجل النحيل الذى يرافقه هو جزار ضاحية «نانتير» الشجاع الذى يختبىء عنده ، ومعه ابنه ذو الأعوام السبعة .

واستدار الثلاثة وركبوا دراجاتهم ومضوا مبتعدين عن الكوبرى . فالجزار لويس برتى كان قد قرر أن يطوف بضيفه باريس فى رحلة سياحية بعد ظهر ذلك اليوم .

بدأ صباح ذلك الأحد هادئا لقائد منطقة باريس الجديد الى حد غادر معه المدينة وحده فى سيارته « الهورش » متجها الى مقر القائد العام للجيوش الألمانية فى الغرب .

ولم تعكر صفو رحلته رصاصة واحدة من حركة المقاومة ، كما لم تظهر طائرة واحدة للحلفاء فى السماء . وكانت النغمة التشاز

الوحيدة التي سمعها هي كلمات الرجل الذى جاء ليجتمع به ، الجنرال فيلدمارشال جونتر فون كلوجه القائد العام للجبهة الغربية .

ففى مخبئه المعتم تحت الأرض فى « سان جرمان أن لى » القريبة جدا من العاصمة ، حدد كلوجه لشولتتز المهمة المنتظر منه أن يؤديها فى باريس .

أنبأه كلوجه بأن فى نية هتلر وفى نيته هو ، الدفاع عن باريس .. وأضاف أن تحويل باريس الى مدينة مفتوحة أمر غير وارد . ثم استطرد قائلا :

ــ ان باريس سوف يدافع عنها .. وستتولى أنت هذا الدفاع .

وأبلغه القائد العام أن تقارير مخابرات القيادة الألمانية فى الجبهة الغربية تتنبأ بأن الحلفاء سوف يحاولون تجنب باريس وتخطيها .. وقال له أن عليه أن يجبر الحلفاء على خوض معركة فى المدينة واستدراج مدرعاتهم الى هذه المعركة ، فبذلك تضعف قوة الحلفاء الضاربة ويتباطأ تقدمهم السريع فى فرنسا .

وكان الهجوم الألمانى المضاد فى « مورتان » الذى كان كلوجه قد عارض فيه بشدة ، قد أوقع الجيش الألمانى السابع فى جيب « فاليز » الذى أوشك الآن أن يطبق عليه .. ولكن كلوجه كان لا يزال لديه القسم الأكبر من الفرق التسع عشرة التى يتألف منها الجيش الخامس عشر ، أكبر الجيوش الألمانية فى فرنسا ، الذى كانت القيادة العليا الالمانية قد جمدته فى «با ــ دى ــ كاليه» حتى أوائل اغسطس ، احتياطا لأية محاولة ثانية يقوم بها الحلفاء لفتح جبهة جديدة على الشواطىء الفرنسية . وقد وعد كلوجه مرءوسه بان يزوده بالتعزيزات التى سوف تلزمه للدفاع عن باريس من قوات هذا الجيش ، عندما يحين الوقت الذى سوف يحتاج اليها فيه .

واتفق الرجلان على أن ثلاث فرق عسكرية تكفى للاستمرار فى حرب شوارع مبددة لقوى العدو فى المدينة ، لمدة ثلاثة اسابيع على الأقل ..

وطلب شولتتز أن ترسل اليه التعزيزات على الفور ، لكن كلوجه رفض ، وقال له أن الوضع فى باريس لم يتحرج بعد الى الحد الـذى يبرر ربط القوات فيها منذ الأن .

بعد أن انتهى الاجتماع الرسمى ، دعا كلوجه زائره الى تناول الغداء معه ، وبعد الغداء قال له :

ـ أخشى ياعزيزى فون شولتتز ان تتحول باريس الى مهمة غير لطيفة بالنسبة لك • ان الجو الذى يحيط بها يشبه جو المقـابر !

فسكت شولتتز برهة قبل أن يرد عليه قائلا :

ـ انها ستكون مقبرة من الدرجة الأولى ، على الأقل !

أحس الملازم الطيار بوب وودرام بيد ابن لويس برتى تندس فى يده بينما ظل الضابط الالمانى الواقف الى جواره يتأمل شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين ووجهه الامريكى المربع وقوامه المفرط فى الطول والمفرط فى الأمريكية أيضا •• فزاد بوب من تركيز نظره على اللوحة التى كان يقف أمامها فى المتحف البحرى • فلكى يمنع نفسه من ابداء أى انفعال أمام الالمانى الذى كان يتفحصه ، لم يحول نظره عن تلك اللوحة منذ لاحظ اهتمامه به •

ودب الرعب فى قلب وودرام حين سمع الالمانى يوجه اليه سؤالا، ولكنه رأى بطرف عينه ابن برتى الطفل يلتفت الى الالمانى ويرفـع رأسه نحوه قائلا :

ـ ان ابى أخرس واصم !

من البرج العـالى المخصص لحكم السباق فى « أوتاى » كان المركيز دى فراكييه يستعرض الجمهور المحتشد تحته من خلال منظاره .• وفجأة توترت اعصابه وانزل المنظار عن عينيه •

كان صوت مزعج قد انطلق لتوه ، ليفسد البهجة شبه الكاملة ليوم المركيز ذاك .. مثلما شوه جمال ذلك اليوم بالنسبة لكثيرين غيره من الباريسيين .

لقد وصل الى أذنى المركيز - خافتا جدا وقادما من مسافة شاسعة فى الاتجاه الجنوبى - الصدى البعيد لقصف المدافع .. وهو أول أول قصف سمع باريس هديره منذ يونيو سنه ١٩٤٠ .

كانت السيارة « الهورش » تسير بسرعة كبيرة وهى تعود بالجنرال فون شولتتز الى باريس ، فقد كان يريد الوصول الى مقره فى فندق « ميريس » فى أقرب وقت ..

كان فى انتظاره هناك تقرير عن عملية دقيقة كان قد أصدر الأمر بتنفيذها فى الصباح .. وكانت أولى عملياته فى باريس .

تلك العملية هى نزع سلاح قوة الشرطة في باريس التى يبلغ عدد أفرادها عشرين ألف رجل . فقد كان الجنرال فلد مارشال كلوجه قد أمر بنزع سلاح جميع رجال الشرطة فى فرنسا فى «حركة مفاجئة» تتم فى ذلك اليوم .

وقد بدأت العملية فى باريس - بناء على أوامر شولتتز - فى مديرية شرطة ضاحية « سان دنيس » وهى ضاحية صناعية صعبة، ثم أمتدت منها بأقصى سرعة الى سائر انحاء المدينة .

عند وصوله الى مقره ، سلمه ياوره الكونت الشاب فون أرنيم التقرير الذى كان فى لهفة الى الاطلاع عليه . كان التقرير يذكر أن العملية قد تمت بدون وقوع أية حوادث وانه تم الاستيلاء على ما يزيد على الخمسة آلاف قطعة سلاح .

شعر فون شولتتز بالسرور . ان الهدوء الذى وجده يخيم على المدينة ثم نجاح هذه العملية وعدم مواجهتها لاية مقاومة ، يبشران بالخير . والآن أصبح فى وسعه ان يركز اهتمامه فى الورقة الثانية التى قدمها

اليه فون أرنيم . كانت برقية تحمل صورة من نفس الأمر الذى كان الجنرال فلدمارشال كلوجه قد أصدره اليه شفويا قبل الغداء ،وهو « يجب الدفاع عن باريس بأى ثمن » .

كانت رمال الشاطىء الصغير فى « نوجان سور مارن » قد بدأت تفقد الدفء الذى استمدته من حرارة شمس الظهيرة ، عندما قرر اوجين هومنز أن ينزل الى البحر مرة أخيرة قبل مغادرة الشاطىء .. فناول مسدسه وهو فى داخل بيته الجلدى الى عشيقته أننيك ومضى يسبح حتى منتصف نهر المارن . وكان يعوم فى كسل لذيذ على مياهه الباردة عندما سمع صرخات أننيك .

هنا ، على هذا الشاطىء النهرى الهادىء ، كان الفرنسيون قد انتقموا لتوهم انتقاما صغيرا مبدئيا لعملية نزع سلاح شرطة باريس .. اثنان من رجال حركة المقاومة سرقا مسدس أوجين هومنز .



لعن الرقيب الألمانى فيرنر نيكس ، القائد الجديد لمنطقة باريس الكبرى .. لأنه بدلا من ان يدعه يستمتع بالذهاب الى دار سينما الجنود فى ميدان كليشى مثلما كان يفعل بعد ظهر كل يوم اثنين ، جعله يخترق ميدان الأوبرا فى سيارة مدرعة للمرة الثانية خلال ساعة واحدة . فقد كان نيكس مثل كل جندى المانى آخر موجود فى باريس ، مشتركا فى ذلك الوقت فى عرض عسكرى .

وكان شولتتز نفسه هو الذى أمر باجراء ذلك العرض ، ومنذ الظهر أخذت قواته تقطع شوارع باريس وهى بملابس الميـــدان فى سيل مهيب من الدبابات والسيارات المدرعة وسيارات نقل الجنـــود .

ومن أجل تعزيز التأثير الذى كان يتوخى احداثه من وراء العرض العسكرى ، كان شولتتز قد أصدر أمره لقواته بان تعــود وتمر مرة ثانية من نفس الشوارع والميادين التى اجتازتها من قبل ، على امل ان يوحى ذلك بأنها أقوى واضخم مما هى فى الحقيقة .

ولم يلاحظ الرقيب نيكس ولا أى من رفـاقه ولا أى من الباريسيين الذين كانوا يشاهدون القوات الألمانية وهى تتدفق عبر

ميدان الأوبرا ، رجلا بدينا قصيرا فى بذلة رمادية كان واقفا عند ناصية الشارع أمام مقهى « كافيه دى لابيه » يتظاهر بقراءة جريدة كانت ثلاث فتيات يقفن بجوار هذا الرجل ويضحكن وهن يتطلعن الى الجنود الألمان ، فاحمر وجه الرجل غيظا . ولم يكن من المعقول الا يغتاظ ذلك الرجل لضحكهن المنطوى على السخرية ، فلم يكن ذلك الرجل الا الجنرال فون شولتتز نفسه الذى نزل بين الجمهور متنكرا فى ملابس مدنية ليتحسس شخصيا تأثير العرض الذى نظمه والذى كان يستهدف من ورائه بث الرعب فى قلوب سكان باريس .

ولم تكن الفتيات الضاحكات وحدهن اللواتى كن يسخرن من العرض ، فقد كانت أمارات الاستهزاء واضحة فى وجوه جميع الفرنسيين الذين كان شولتتز يسترق النظر اليهم ، وكذلك فى ملاحظاتهم التى لم يكن يفهمها جيدا لجهله بالفرنسية . وان كان معناها واضحا تماما من ضحكات السخرية التى تثيرها .

ادرك شولتتز وهو واقف بين حشد من المارة أن عرضه قد فشل ، وأنه سوف يكون عليه أن يفعل ما هو أكثر من مجرد اظهار القوة ، لفرض الهدوء على باريس .

***

قاطع صوت الفوهرر الحاد المتعجل الجنرال ـ أوبرشت الفريد بودل فى اثناء تلاوته للتقرير اليومى عن الموقف فى الاجتماع الأول لهيئة القيادة العليا الألمانية يوم ١٤ أغسطس ، وأوقفه عن مواصلة القراءة . مرة اخرى كانت أفكار هتلر قد تحولت الى موضوع الدفاع عن باريس . التفت الى الجنرال بوهله مدير الامدادات والتموين بالقيادة العليا وسأله :

ـ اين مدفع الهاون عيار ٦٠٠ ملليمتر الذى صنعناه من أجل الهجوم على برستث ـ ليتوفسك وسباستوبول ؟

واضاف انه قرر ارسال ذلك المدفع الى فون شولتتز فى باريس .

فوجىء الجنرال بوهله تماما بهذا السؤال ، فتلفت نحو الجنرال فلدمارشال كايتل الذى تلفت بدوره نحو يودل الذى تلفت هو الآخر نحو فارليمونت . لم يكن لدى اى منهم اية فكرة عن مكان المدفع . بل اكثر من ذلك لم يكن فارليمونت يعرف شيئا عن وجود هذا المدفع أصلا .

غضب الفوهرر من صمتهم المحرج وأخذ يضرب مائدة الاجتماعات بقبضته ، ثم صاح فى بوهله قائلا ان عليه أن يبحث عن هذا المدفع ويبعث به الى باريس فورا . وطلب أن يقدم اليه تقرير مرتين يوميا يحدد تقدم المدفع فى طريقه الى باريس الى أن يصل اليها .

فكتب فارليمونت مذكرة ، ثم خرج على اطراف أصابعه هو وبوهله من قاعة الاجتماعات ، ليحاولا معرفة أين هو وما هو المدفع المجهول الذى يسأل عنه الفوهرر .

بعد ذلك بثماني ساعات تلقى فارليمونت الاجابة على أسئلته . كان قد تم العثور على المدفع فى أحد مستودعات الجيش ببرلين .

وكان ذلك المدفع الذى صمم خصيصا لحرب المدن ، قداستخدم فى برسنت ـ ليتوفسك وسباستوبول وستالينجراد .. وكان فون شولتتز نفسه قد استخدمه فى تمزيق استحكامات سباستوبول .

كان ذلك المدفع اقوى قطعة مدفعية مفردة صنعها الانسان فى عصر ما قبل الذرة . وقد اطلق عليه اسم « كارل » نسبة الى المهندس الذى وضع تصميمه الجنرال كارل بيكر . وكان يستطيع ان يقذف بقنبلة وزنها طنان ونصف طن وسمكها قدمان مسافة تزيد على الثلاثة أميال . وكانت تلك القذيفة الهائلة تستطيع أن

تخترق استحكامات الاسمنت المسلح التى يبلغ سمكها ثمانية أقدام . وكان عدد صغير من قذائف هذا المدفع ، يكفى لتحويل حى كامل الى حطام . ولا شك أن هذا المدفع يمكن أن يشكل بالنسبة لباريس التى بدات تتململ ، تهديدا أكثر فعالية بكثير من العرض العسكرى الذى نظمه شولتتز فيها فى ذلك اليوم .

فى الاجتماع الثانى للفوهرر بقواده فى ذلك اليوم ، أبلغ فارليمونت الفوهرر أن المدفع « كارل » أصبح فى طريقه الى باريس فى عربة نقل مستقلة من عربات السكة الحديد . وقال انه سيصل اليها بعد ثمانية ايام .

***

فى أحد المطارات العسكرية بجنوب انجلترا ، كان الجنرال جاك شابان - دلماس يحفظ عن ظهر قلب ما كتب فى ورقة بخط يده . وبجانبه حقيبة من الورق المقوى تحتوى على الثياب التى سوف يتنكر فيها فى طريق عودته الى باريس .

فقد رفضت القيادة العسكرية لفرنسا الحرة فى لندن أن توافق على اسقاطه بمظلة بالقرب من باريس على أساس أن ذلك ينطوى على اخطار جسيمة فى الليالى غير المقمرة ، وقررت أن يسافر بالطائرة الى المنطقة التى حررها الحلفاء فى نورماندى .. ثم يتسلل عبر خطوط القتال بمساعدة الأمريكيين الى أن يصبح داخل أراضى فرنسا المحتلة ، ومن هناك يواصل رحلته الى باريس على دراجة مرتديا ملابس رياضية قديمة ، وحاملا مضرب تنس ودجاجة مذبوحة ليظهر بمظهر باريسى خرج الى الريف ليلعب التنس ويعود الى عائلته بدجاجة .

وكان شابان - دلماس قد نجح فى الوصول الى مرعى البقر القريب من « ماسون » فى الوقت المناسب ، ولحق بالطائرة التى

اقلته الى لندن .. ولكنه فشل فى اقناع الحلفاء بتغيير خططهم الخاصة بباريس ، على الرغم من أنه دافع بكل ما يملك من حماسة وقوة اقناع عن آرائه امام كل مسئول كبير استطاع ان يسمعه صوته . ومع ذلك فقد كان شابان ـ دلماس يحس ان الرحلة السرية التى قام بها الى لندن لم تكن بلا فائدة ، فقد نبه خلالها ديجول وكبار رجال حكومته فى لندن والجزائر الى حقيقة الأوضاع فى باريس .

وكانت الأوامر التى يعود بها هى ان يظل يسعى من أجل منع قيام ثورة مسلحة فى باريس الى أن يصل الحلفاء الى أبوابها . وعندئذ يمكنه أن يوافق على اشتعال ثورة قصيرة لا تزيد مدتها على أربع وعشرين ساعة .. الهدف منها منح أهالى باريس شعورا بأنهم قد ساهموا على نحو ما فى تحرير أنفسهم .

كما أصبح شابان ـ دلماس مستعدا الآن لمواجهة الموقف فى حالة خروج الأمر من يده ، واصرار الشيوعيين على اشعال الثورة ، فقد كانت الورقة التى يحفظ عن ظهر قلب ما كتب عليها ، تحتوى على الخيوط العريضة لعدة خطط يمكنه أن يلجأ اليها للاحتفاظ بالسيطرة على باريس الى ان يصل الحلفاء اليها .

وكان آخر سطر على الورقة يتألف من خمس كلمات رمزية تحدد بدء تنفيذ عملية مستميتة خطيرة كان شابان ـ دلماس نفسه هو الذى وضع خطتها . وكانت تلك العملية جريئة ومشبعة بالأخطار الى حد أنه كان يرجو الا يضطر ابدا الى تنفيذها ، ويتمنى الا يسمع ابدا عبر الأثير من الاذاعة البريطانية الكلمات الخمس التى تعلن بدايتها .

أما تلك الكلمات التى حفظها شابان ـ دلماس قبل ان يصعد الى الطائرة التى ستعود به الى فرنسا ، فكانت :

« هل افطرت جيدا يا جاك ؟ » .

في غرفة خلفية في أحد مقاهي باريس الصغيرة ، جلس رجلان على احدى الموائد يشربان زجاجة من النبيذ . كان احدهما هو « الكولونيل رول » الشيوعي الذي يقود حركة المقاومة السرية في باريس وكان الآخر هو الزعيم الشيوعي لحركة المقاومة السرية في قوة شرطة باريس • وكان قد حمل شرطة باريس على الاضراب عن العمل في ذلك اليوم .

ولم يكن الرجلان قد تقابلا من قبل .

كان رول يريد معرفة شيء واحد سه هو : هل يضمن له امتثال قوة الشرطة لأوامره في حالة قيام ثورة ؟.

فقد كان رول يعرف ان الحلفاء سوف يصلون قريبا الى نهر السين عند « مانت » و « ميلان » فوق باريس وتحتها ، كما كان واثقا من أن الثورة التي كان المفروض في شابان ـ دلماس أن يمنع قيامها ، لن يتأخر اندلاعها عن أيام وربما ساعات .

وكان يهمه أن تكون تحت تصرفه عند نشوب تلك الثورة ، قبل أية فئة أخرى ، قوة شرطة باريس التي تتألف من عشرين الف رجل . وقد جاء الى ذلك المقهى الصغير ليتأكد من هذا الأمر .

***

توجهت السيدة الطويلة الوقورة مع اولادها الستة على دراجاتهم الى كنيسة قرية « وارلوس » الصغيرة في مقاطعة بيكاردي ، لتزيين مذبحها بالزهور احتفالا بعيد صعود السيدة العذراء . وكانت تلك السيدة ـ تريز دي هوتكلوك ـ تحس بولاء خاص للسيدة مريم ، لانها قبل ذلك بأربع سنوات كانت قد عهدت اليها بحماية ورعاية اقرب الناس اليها .. زوجها فيليب .

ففى الساعة السادسة من صباح الثالث من يوليو سنة ١٩٤٠ ، كان فيليب قد غادر المنزل الريفى الذى كانوا قد فروا اليه ، ليبحث فى اى مكان يمكن أن يجدها فيه عن أسلحة يواصل بها القتال ضد غزاة فرنسا .

وكان اولادهما الستة لا يزالون نياما فى ذلك الصباح عندما همس فيليب بآخر كلماته لزوجته قبل رحيله ، وهى : تشجعى يا تريز ، فقد يطول فراقنا .

وقد ظلت تريز حوالى الأربع سنوات لا تعرف اذا كان زوجها حيا أو ميتا . ثم سمعت فى احدى ليالى مارس سنة ١٩٤٤ من الاذاعة البريطانية رسالة موجهة منه اليها فى برنامج الرسائل الشخصية ، ولم تكن تلك الرسالة تحمل اسمه أو اسمها ، ولكنها كانت تقول فقط ان فيليب المولود فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٢ ، يبعث الى زوجته والى أحبابه الستة بتحياته الحارة .. فعرفت أنه لا يزال على قيد الحياة .

وبينما كانت تريز تضع الزهور مع أولادها على مذبح الكنيسة الصغيرة بعد ظهر ذلك اليوم ، يوم ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٤ ، دوى فى سكون الكنيسة صوت يناديها ويطلب منها ان تأتى بسرعة . كانت صاحبة الصوت هى مدام دومون صاحبة حانة القرية التى أمسكتها وجرت بها الى حانتها عبر الساحة لتسمعها الصوت الذى كان ينبعث من جهاز الراديو .

عندما سمعت تريز ذلك الصوت بكت لأول مرة منذ هزيمة بلدها ، فقد كان صاحب الصوت هو زوجها فيليب دى هوتكلوك الذى اصبح يعرف الآن باسم الجنرال جاك لكلير . وكان قد غير اسمه بعد ان انضم الى ديجول فى المنفى ليبعد أذى المحتلين والمتعاونين معهم عن أفراد اسرته .

وكان الجنرال لكلير يعلن لفرنسا عبر الأثير انه قد عاد الى ارض الوطن على رأس فرقة مدرعة فرنسية ليشارك في معركة تحرير بلاده ، ويقول ان العلم المثلث الألوان سوف يرتفع فوق باريس من جديد .

استيقظت ماري ـ هيلين ليفوشو ، زوجة بيير ليفوشو المعتقل في سجن « فريسن » مذعورة على صوت التليفون وهو يدق في الحاح في ظلام الليل . وعندما رفعت السماعة سمعت صوت صديق من اعضاء حركة المقاومة السرية يقول لها :

ـ ان شيئا ما يجرى في سجن « فريسن » .



سمع بيير ليفوشو فى سكون ماقبل الفجر صوت عجلات العربة التى تحمل القهوة تصطك بأرض السجن وهى تبدأ جولتها الاخيرة فى دهاليز سجن « فريسن » . وسمع أبواب الزنزانات تفتح واحدا بعد الآخر كلما توقفت العربة امام احدها . وقد توقفت العربة أمام عدد هائل من الابواب قبل أن تصل الى باب زنزانته وتتوقف عنده .. وسمع بيير صليل مفاتيح السجان ورأى بابه ينفتح ، فأدرك أن ما كان يعيش فى رعب منه منذ دخل السجن قد وقع اخيرا ، وانه سيعطى على الفور فنجان القهوة الذى يسبق ترحيله الى المانيا حيث معسكرات الاعتقال الرهيبة التى يقاسى فيها النزلاء الأهوال .

بالنسبة لملايين الباريسيين الذين كانوا لايزالون نيـاما خارج الجدران الرمادية الحجرية لسجن «فريسن » كان ذلك الفجر الذى بدأت أنواره الاولى تبدد ظلام الليل هو بداية اليوم الأخير فى عطلة عيد صعود العذراء .. ولكنه كان بالنسبة لبيير ليفوشو ولألفين وخمسمائة سجين آخر من نزلاء سجن « فريسن » وغيره ، بداية لمسيرة آلام .

عند شروق الشمس كان جزء كبير من الاستعداد لعملية ترحيل المساجين قد تم . اخذت النساء أولا من سجن « فريسن » ووضعن

فى سيارات اوتوبيس • ثم اخرج الألفان من الرجال المقرر ترحيلهم من زنزانات السـجن وعنابره بمجرد ان تحـركت من امـام بابه الاوتوبيسات المقلة للنساء •

الكابتن فيليب كوين نائب مدير المخابرات البريطانية السرية فى باريس حمد الله على اختياره ضمن المرحلين ، لأن الترحيل يضع حدا للتعذيب الفظيع الذى يلقاه من يوم لآخر على يد الجستابو ، ويجعله يذهب اينما يريد الألمان نقله بضمير مستريح ، فهو لم يبح تحت التعذيب بأى سر ولم ينكث العهد •

لويس ارمان انزل الى ساحة السـجن ضمن المجموعة الأولى من المساجين الذين تم اخراجهم من زنزاناتهم ، وكان سروره بالترحيل كبيرا الى حد لم يستطع معه ان يخفيه • فقد كان هو أيضا بفضل أى مصير على التعذيب الذى يلقاه على يد الجستابو وما قد يجر هـذا التعذيب الرهيب اليه •• ولكن فرحته لم تطل اذ سرعان ما نادى احد الحراس اسمه ، واقتاده من جديد الى زنزانته بعد ان اتضح أن الألمان قد شطبوا اسمه من قائمة المرحلين •

واحد من نزلاء السجن بدا له منظر الفرنسيين المكدسين فى ساحة السجن تحت نافذة زنزانته ، اقسى منظـر وقعت عليه عيناه •• انه جندى الاشـارة الألمانى فيلى فاجنيخت الذى قضى طوال مدة وجوده فى باريس باستثناء يومين اثنين فى هذه الزنزانة تنفيذا لحكم صدر عليه بالسجن ستة اشهر بسبب اعتدائه بالضرب على احد الضباط فى مركز التليفونات بمقر القيادة الألمانية للجبهة الغربية • انه فى ذهول امام ما يراه ، فهو لا يرى شيئا فى الوجود اكثر مجافاة للمنطق من ان يرى جميع هؤلاء الفرنسيين يؤخذون الى المانيا ، بينما يبقى هو ـ الالمانى ـ فى هذا السجن الفرنسى الكريه !

خارج السجن كانت مارى ـ هيلين ليفوشو تمسك فى عصبيـة بيد دراجتها وهى تشاهد بوابة السجن وهى تفتح • فمنذ السادسة

صباحا وهى تقف على الرصيف فى البقعة التى ازاحها اليها رجال فرق الصاعقة الالمان الذين يحرسون بوابة السجن تنتظر فى صمت انفتاح تلك البوابة • وهى تحدق الآن فى المساجين واحدا واحدا وهم يجرون انفسهم امام المدافع الرشاشـــة التى يحملهـــا الحراس ويصعدون الى الاوتوبيسات التى كانت فى الانتظار •

ثم وقع نظرها على زوجها ، فأفلتت منها صيحة خافتة مكتومة وهى ترى وجهة الشـاحب المعذب المكدود • ولكن فى نفس الوقت الذى كانت تقول لنفسها فيه :

ـ يا الهى •• كم اصبح نحيلا ••

كانت تحس بفرحة جنونية لادراك انه حى ••

غير انها ما لبثت ان تذكرت ان زوجها بيير الذى اغتبطت لرؤيته حيا ، يجرى ترحيله بعيدا الآن•• وظلت تتابع فى ألم ممض خطواته الثقيلة ، الى ان صعد درجات الاوتوبيس • وخيل اليها انه هز لها رأسه قبل ان يدخل الســـيارة فتمتمت : « لقد رآنى » بصــوت مسموع ، واجهشت بالبكاء •

ثم رأت من خلال دموعها القسيس ستينير الذى تعرفه يقف بين الجنود الألمان عند باب السيارة التى ركبها زوجها ، فجرت نحوه مارة كالسهم برجال الصاعقة •• فقال لها القسيس فى صوت هامس :

ـ احمدى الله يابنيتى على ترحيله •• فان مذبحة سوف تحدث فى هذا السجن •

وادارت الاوتوبيسات محركاتها وبدأت تسير •• فجرت مارى ـ هيلين عائدة الى دراجتها وانطلقت بها بلا وعى وراء الاوتوبيسات »



في المخبأ الذى تتخذ منه القيادة العليا للجيوش الالمانية في الغرب مقرا لها ، انعقد اجتمـــاع للقواد حضره ديتريتش فون شولتتز ، وجلس فيه دون أن يبدو على وجهه أى تعبير يستمع الى الجنرال جونتر بلومنتريت رئيس اركان حرب القيـــادة وهو يشرح اقتراحا وضعه بشأن تنفيذ « اســـلوب الأرض المحروقة » تنفيذا جزئيا في باريس •

كان اقتراحه ينقسم الى جزءين : أولهمـــا يقضى بتدمير منشئات الجاز والكهرباء والمياه في المدينة تدميرا منظما شاملا •• وقد حث واضع الاقتراح رئيسه الجنرال فلدمارشال فون كلوجه القائد العام للجيوش الالمانية في الغرب على البدء في تنفيذ هذا الجزء على الفور ••

اما الجزء الثانى فقد تضمن خطة لتخريب مصانع باريس تخريبا محدودا •

فقد كان الألمان يدركون انهم لا يملكون لا الوقت ولا العدد الكافي من الرجال لتحطيم جميع المصانع التى يضمها الحزام الصـــناعي الضخم الملتف حول باريس تحطيما كاملا •• ولذلك قصر بلومنتريت خطته على تدمير الآلات الرئيسية في تلك المصانع بحيث لا تستطيع قوات الحلفاء المتقدمة الاستفادة منها عند وصولها الى باريس •

وقال بلومنتريت للمجتمعين ان ما يقترحه هو امر اســـاسى من الناحية الاستراتيجية ، فلو لم تحطم الصـــناعة فى باريس ، فان الحلفاء لابد ان يحولوها الى سلاح ضد المانيا خلال اسابيع

وأضاف ان تهييج الأهالى وشل المدينة من شأنهما ان يساعدا على ابطاء تقدم العدو ، لأنهما سوف يجبران الحلفـاء على تحويل جزء من مواردهم الحربية الى المدينة المنكوبة •

وبعد ان كرر بلومنتريت دعوته الى الشروع فى تنفيذ الجزء الأول من اقتراحه فورا ، قدم الى شولتتز قائمة بالمستودعات التابعـة للبحرية الالمانية فى باريس التى فى امكانه ان يحصـــل منها عـلى المتفجرات التى قد تلزمه لتعزيز ما يوجد منها لدى الجيس •

ثم ختم كلامه بقوله انه اذا لم يبدأ على الفور تنفيذ البرنامج الذى وضعه ، فان هناك خوفا من الا يتسع الوقت لاتمامه قبل أن تصبح باريس على مرمى مدفعية الحلفاء •

لم يندهش شولتتز لأى شىء مما ورد فى اقتراح بلومنتريت الذى وجده سليما تماما من الناحية العسكرية، لأنه كان قد تلقى فى اليوم السابق من القيادة العليا لهتلر أول الأوامر التى بعثت بها اليه فى باريس • وكانت تلك الأوامر تقضى اما بتدمير المؤسسات الصناعية فى باريس ، واما بشلها شللا تاما • وكان يعلم أن تلك الأوامر قدمت بقيادة الجيوش الالمانية فى الغرب • ومنذ تلقى الدعوة لحضور هذا الاجتمـاع الصـــباحى المبكر ، لم يكن لديه شك فى انه قد دعى للاستماع الى توصيات بلومنتريت بشأن وسائل وضـع اوامر هتلر موضع التنفيذ •

وعلاوة على انه لم يندهش لســـماع مقترحات بلومنتريت ، فان شولتتز لم ير أية غرابة ايضا فى الأوامر التى تلقاها ، بل وجدهـا منطقية تماما • فهى على أية حال لا تعدو الاشارة بالتوسع فى تطبيق نفس التكتيكات التى اتبعت فى الجبهة الشرقية •

وفى الوقت الذى كانت فيه قاذفات الحلفاء تلقى الحمم ليليا على المدن الالمانية ، لم يجد الرجال الملتفون حول مائدة الاجتماعات فى مقر قيادة فون كلوجه اى شيء غير معقول فى ان يطبق الأسلوب نفسه على باريس ، من الأرض .

غير أن شولتتز كان له اعتراض واحد على خطة بلومنتريت ، ينصب على توقيت تنفيذها .

فهو فى الوقت الحاضر يهمه أن يدافع عن باريس لا أن يدمرها .

وقد أعلن رأيه هذا فى الاجتماع ، وقال أن الوقت المناسب للشروع فى تنفيذ خطة بلومنتريت هو عندما يبدأ الاستعداد للتخلى عن المدينة .

وأضاف أنه من الواضح أن هذا ليس فى النية لبعض الوقت .

واستطرد شولتتز قائلا أن التسرع فى تنفيذ خطة بلومنتريت سوف يلقى بآلاف من عمال المصانع فى أحضان حركة المقاومة السرية ويجعل سكان المدينة فى حالة حرب علنية ضد قواته .

ثم صمت لحظة وأضاف ، مشيرا الى اقتراح بلومنتريت بقطع الكهرباء والجاز والمياه عن باريس فورا :

ـ كما أن الجنود الألمان أيضا ، يشربون الماء !..

وكان المارشال فون كلوجه قد ظل يستمع الى مناقشة الرجلين دون أن يظهر أى تحيز لآراء أى منهما .. ولكنه رفع يده عندئذ فجاة علامة على أن المناقشة قد استمرت بما فيه الكفاية .

ثم قال أن كلا من الجنرالين قد أثار نقطا هامة وأبدى وجهات نظر سديدة . وأضاف أنه سوف يصدر الأوامر النهائية فى هذا الموضوع فيما بعد .

وبهذا انتهى الاجتماع *

بعد ذلك بست وخمسين ساعة وبينما يكون فون كلوجه فى طريق العودة الى المانيا بعد اعفائه من قيادته وتعيين واحد من أكثر مارشالات هتلر فاعلية ودموية بدلا منه .. سوف ينتحر فون كلوجه ..

ولكن قبل سفره سيكون قد أصدر أمرا الى شولتتز بالبدء فى تنفيذ التدمير المنظم الذى اقترحه بلومنتريت ذلك الصباح

عندما وصل فون شولتتز الى مقره فى فندق « ميريس » بعد ذلك الاجتماع . كان هناك أربعة رجال فى انتظاره فى غرفة الانتظار الملحقة بمكتبه .. وعلى الأوامر التى جاءوا بها معهم من برلين « وجد شولتتز امضاء « الجنرال — أوبرشت » يودل .

كانوا اربعة من المهندسين ، ارسلتهم القيادة العليا الالمانية الى باريس « ليجهزوا ويشرفوا على تنفيذ عملية تدمير جميع المنشآت الصناعية الكبيرة فى منطقة باريس » . وقد احضروا معهم ادوات عملهم ..

ففى غرفة الانتظار بمكتب شولتتز كان هناك اثنتا عشرة علبة مستديرة سوداء من علب الخرائط وكانت تلك العلب تحتوى على صور ورسومات تفصيلية لجميع المصانع ذات الشأن فى باريس وضواحيها ..

وأوضح كبير هؤلاء المهندسين لشولتتز أنه فى امكانهم — عن طريق وضع كميات معقولة من المتفجرات فى أماكن مختارة بعناية — أن يشلوا صناعات باريس لمدة ستة أشهر على الأقل . —

خصص لهم شولتتز جناحا فى الدور الرابع من فندقه ، وأمر بوضع سيارتين تحت تصرفهم لكى يتمكنوا من تفقد مصانع المدينة بأنفسهم .

وبعد ذلك بساعتين ـ عندما زارهم لأول مرة فى جناحهم ـ وجدهم غارقين فى بحر من الخرائط والرسومات .

ووعده أحدهم بأن الحلفاء لن يجدوا مصنعا واحدا قابلا للتشغيل فى المدينة ، لو سقطت فى ايديهم .

١٩

كانت شمس أغسطس تلسع الاسقف الحديدية لعربات نقل المواشى التى اصطفت فى خط طويل متصل فوق القضبان بمحطة سكة حديد « بانتان » المخصصة لقطارات البضائع والتى تقع خلف حظائر المواشى الرئيسية بباريس مباشرة • وكانت بداخل تلك العربات شحنة البضائع البشرية التى اختارها رجال فرق الصاعقة لترحيلها الى المانيا • وكانت العربات مزدحمة الى حد أن كان ركابها يجاهدون لالتقاط أنفاسهم فى ذلك الحر الشديد •

كانت زهرة أعضاء حركة المقاومة السرية الفرنسية ـ ٢١٠٤ رجال و٤٠٠ امرأة ـ تنتظر فى بؤس تحرك القطار •

كانت احدى العربات تحمل ٩٢ امرأة ، وكانت نافذتها الوحيدة المغطاة بالاسلاك الشائكة أعلى من أن تتيح لأطول امرأة نظرة الى الخارج وأخذت النساء واحدة تلو الأخرى يخلعن ثيابهن حتى لم يبق عليهن غير ملابسهن الداخلية ، ومع ذلك كان الحر خانقا والتنفس صعبا وقد أخلت النسوة بقعة صغيرة فى احدى زوايا العربة ـ بجانب « الجردل » الذى قام بدور المرحاض ـ اتفقن على أن تتبادل كل ثلاث منهن الجلوس القرفصاء فيها ليحصلن دوريا على بعض الراحة •• بينما تظل الباقيات واقفات يتصببن عرقا وهن ملتصقات الواحدة بالأخرى •

العربة التالية كانت أقل ازدحاما فاستطاعت راكباتها أن يجلسن القرفصاء جميعا وركبهن ملتصقة باكتافهن وذراع كل منهن فى ذراع جارتها بحيث تشكلت منهن سلسلة بشرية ولكنهن مالبثن أن أغمى عليهن واحدة تلو الاخرى • وقبل ان يمضى وقت طويل سوف تكون ست منهن قد توفين •

عربات الرجال كانت أكثر سوءا • كانت كل واحدة منها تقل مائة رجل على الأقل ، وقد تعروا جميعا حتى خصورهم وتركزت آمالهم اليائسة فى شيء واحد هو أن تبدأ مسيرة ذلك القطار الذى كانوا قبل ذلك يتمنون أن يفوتهم •

بيير ليفوشو كان يقف فى احدى هذه العربات وهو مصاب بالدوار من جراء الجوع والعطش والحر ، وكان يصلى من أجل تحرك القطار بينما استبد العطش بالرجل الذى كان يقف وراءه الى حد جعله يلعق بلسانه المحترق سيل العرق الذى كان يسيل على ظهره !

خرج من محطة « بانتان » ودخل مقهى قريبا منها ، رجل هدل الحزن كتفيه العريضتين وطأطأت خيبة الأمل رأسه •

كان ذلك الرجل هو أميل بندر الملقب باسم « بوبى » ضابط المخابرات العسكرية الألمانية الذى كان عضوا فى الوقت نفسه فى شبكة سرية تعمل ضد الحكم النازى •

وكان قد حاول منع سفر القطار عن طريق « بلف » قائد رجال الصاعقة المرافقين للمساجين المرحلين ، وعمل على ايهامه بأنه ينقل اليه أوامر صادرة من جهات عالية •• ولكن لعبته لم تنجح •

وكان هو ونوردلنج قنصل السويد العام فى باريس قد بذلا جهودا مستميتة منذ أن توصل القنصل السويدى الى الاتصال به ، من أجل وضع المساجين السياسيين فى منطقة باريس تحت اشراف الصليب الأحمر •• ولكن جهودهما لم تؤد الى أية نتيجة •

قابل نوردلنج بيير لافال رئيس حكومة فيشى الفرنسية ، وأوتو أبيتز سفير المانيا ، وكارل أوبرج رئيس الجستابو فى فرنسا ، وعرض

هذه الفكرة عليهم وحاول اقناعهم بالموافقة عليها .. ولكن أحدا منهم لم يبد أى اهتمام .

أما شولتتز فقد حالت مشاغله دون استقبال نوردلنج وبوبى .

كان هناك رجال آخرون يحاولون أيضا فى ذلك الصباح منع ذلك القطار الذى يجر عربات نقل المواشى من السفر ، ولكن أسلوبهم فى العمل كان مختلفا ..

بينما كان المساجين يكادون يختنقون فى عرباتهم التى جعلتها الشمس أشبه بالأفران ، كان هناك صبى يندفع على دراجته بأقصى سرعة خارجا من باريس ومتجها الى قرية « نانتى ساسى » الصغيرة . كان يحمل رسالة شفوية عاجلة من حركة المقاومة السرية فى باريس الى قائد شبكة المقاومة فى القرية ، وكانت الرسالة التى يحملها واضحة وقصيرة .

كان نصها هو : « يجب بأية طريقة وبأى ثمن قطع الخط الحديدى الرئيسى فيما بين باريس ونانسى » .

وكان ذلك الخط هو الذى لابد أن يمر عليه القطار الواقف فى محطة « بانتان » لكى يصل الى ألمانيا .

ومن جهاز ارسال لاسلكى مخبأ فى غرفة صغيرة على سطوح احدى العمارات الباريسية ، انطلقت رسالة لاسلكية عند الظهر الى لندن . وكان نص تلك الرسالة هو :

« للابلاغ العاجل الى جميع قادة حركة المقاومة السرية داخل فرنسا ـ الالمان نظموا ترحيل المعتقلين فى سجون باريس وخاصة سجن فريسن بالسكة الحديد عن طريق ميتز ـ نانسى . نخشى مذبحة عامة خلال الرحلة .. اتخذوا جميع الاجراءات الممكنة لتخريب الرحلة ».



أصدر الهاوبتمان ـ أى النقيب « فيرنر أبرناخ »أمره الى سائق سيارته بالتوقف عند منتصف كوبرى « نيبى » عند الطرف الغربى لباريس ، وأشار الى رجال سرية المهندسين الذين كانوا يتبعـونه بالتوقف أيضا • ثم نزل من السيارة واتجه الى سور الكوبرى وأخذ يتطلع الى مياه نهر السين تحته • بعد ذلك اخرج خريطة من جيبه وفرشها على السور ، وأخذ يعد الكبارى التى تتضمنها ، فوجدهـا خمسة وأربعين كوبريا •

تلك الكبارى الخمسة والأربعون كانت هى الشرايين التى تربط باريس ببعضها ، وبدونها تعود الحلقات التى يدور فيها السين فى أثناء اختراقه لباريس الى ماكانت عليه منذ ألفى سنة عند تأسيس العاصمة الفرنسية فوق احدى جزر النهر ـ تعود فتصبح حواجز هائلة

كان ابرناخ يحمل فى جيب صدره تحت وسام الصليب الحديدى الذى فاز به ورقة زرقاء سوف يسلمها بعد دقائق الى الجنرال فون شولتتز • وهى تحمل أمضاء « الجنرال ـ أوبرشت » بودل رئيس هيئة أركان الحرب الالمانية ، وتتضمن أمرا عاجلا بتدمير الكبارى الخمسة والأربعين التى تغطى نهر السين فى باريس •

ولم يكن ابرناخ يعرف لماذا يريد هتلر تدمير هذه الكبارى ولا كان يهمه أن يعرف · فهو رجل دقيق وبارع فى اختصاصه ، وكل مايهمه هو أن ينجح دائما فى عمله .

وكان واثقا وهو يقف على كوبرى « نييى » وينظر من فوقه الى كوبرى «بوتو» أمامه وكوبرى « الجات » وراءه ، الذى يقطع النهر فى قفزتين اذ يتوقف فى احدى الجزر الصغيرة فى منتصف النهر .. كان واثقا من أن كبارى باريس لن تواجهه بأية مشاكل جديدة عليه ، وأن نسفها لن يكون أصعب من نسف عشرات الكبارى التى سبق له أن دمرها فى روسيا وغيرها .

وبعد دقائق سوف يقول لقائد منطقة باريس أنه بعد أن يفرغ من عمله وتهوى جميع كبارى باريس فى النهر ·· فان السين سوف يصبح مسدودا من اقصى باريس الى أقصاها ·

قبل أن يعود الى سيارته . تفقد ابرناخ أسس كوبرى «نييى)»ومعه رئيس قسم المتفجرات فى سريته · ومن شاطىء النهر أخذ يدقق النظر فى القاعدة الرئيسية للكوبرى فوقه مستعينا بنور مصباحه الكهربائى ·

وأخيرا عثر على ماكان يبحث عنه ·

كان مربوطا بقاعدة الكوبرى جهاز لوضع الألغام علاه الصدأ ، كان أبرناخ يأمل فى أن يجده . فمنذ أكثر من سبعين سنة ، كانت الحكومة الفرنسية قد أصدرت قانونا يحتم ربط هذه الأجهزة بجميع كبارى فرنسا ، لكى يتسنى نسف الكبارى بسرعة فى حالات الطوارىء .

كانت الشمس تتسلل من خلال أشجار حرش البلوط ·· ولأول مرة منذ أشهر ، سمع الجنرال جاك شابان - دلماس صوت سقسقة العصافير .· على بعد ميلين وراء هذا الحرش الصغير ، تقع قرية « كونريه » وعلى بعد مائة ميل أمامه تقع باريس ·

كان اثنان من الضباط الأمريكيين قد اصطحباه الى هذه البقعة التى تقع عند أقصى حد وصل اليه تقدم جيوش الحلفاء فى فرنسا .. وهناك سلماه حقيبته المصنوعة من الورق المقوى . بجانبه كان هناك دجاجة مذبوحة وقطعة زبدة والدراجة التى سوف يركبها عائدا الى باريس ، وقد ربطت بيدها زهرة قرنبيط .

أخرج شابان - دلماس من الحقيبة ملابس لعب التنس القديمة المقرر أن يتنكر فيها ، وأخذ يرتديها .

بعد أن فرغ من ذلك ، طوى بزته العسكرية التى لبسها لمدة أربعة أيام فقط ، ووضعها فى الحقيبة .

قبل أن يمضى ، استوقفه احد الامريكيين وطلب منه فى تردد وخجل أن يعطيه أى تذكار للدقائق القليلة التى قضاها فى صحبته وأضاف فيما يشبه الاعتذار محاولا أن يبرر طلبه :

- انك اول « جنرال » فرنسى نقابله ، كما انك سوف تدخل باريس راكبا دراجة قبل أن تصل اليها دباباتنا !

فتوقف شابان - دلماس ، وبأصابع اعترتها رعشة طفيفة انتزع النجمتين المثبتتين على كتفى سترته العسكرية ، وأعطى كلا من الضابطين الأمريكيين اللذين جاءا به الى هذا الحرش الصغير ، واحدة منهما .

ثم صافحهما ، وركب دراجته ، ومضى فى الطريق الريفى غير المعبد المتجه نحو باريس .

* * *

لم يفاجأ الجنرال ديتريش فون شولتتز بالأمر الذى حمله اليه الهاوبتمان فيرنر ابرناخ . اذ كان قد تلقى نسخة منه من القيادة العليا الألمانية مباشرة .. ولكنه فوجىء برؤية ابرناخ فى مكتبه .

لقد كان يعرف هذا الضابط الشاب قبل الحرب ، وكان قد أتيح له أن يشهد فى بلدة « جيما » بألمانيا مهارته فى القيام بنفس الأعمال التى أوفد الى باريس من أجل تنفيذها

هناك ، خلال مناورات عسكرية جرت فى سنة ١٩٣٦ ، كان ابرناخ قد نسف كوبريين على نهر « مولده » أمامه ، وأثار اعجابه • وأكدت له نظرة التصميم الناضج التى أصبحت تشع من عينى أبرناخ أنه قد حقق النجاح الذى كان يبشر به فى صباه ••

لم يكن لدى الجنرال فون شولتتز أى شك فى أن أبرناخ قادر على خنق السين فعلا بحطام كبارى باريس ، كما قال له ولكن شولتتز كان مصمما على أن يحتفظ لنفسه بالسيطرة التامة على هذه العملية•

قال لابرناخ : امض قدما فى كل استعداداتك •• ولكنه أضاف انه لايريد أن تتم أية عملية نسف فى باريس الا بعد ان يوافق هو شخصيا عليها ••

ثم قال للنقيب النشيط المتحمس الواقف أمامه :

ــ ان السين يا ابرناخ ليس « المولده » وباريس ليست « جيما »• ان العـــالم بأسره يسلط أنظاره علينا هنا ، وليس فقط حفنـة من الجنرالات •

لم تكن قد مضت غير دقائق قليلة على خروج أبرناخ من مكتب فون شولتتز ، عندمادخل عليه الأوبرشتــ أى العقيد ــ فرايدريش فون أونجر رئيس أركان حربه حاملا اليه تقريرين •

كاد الجنرال أن يتجاهل التقرير الأول الذى كان بخصوص اضراب شرطة باريس ، ولكن التقرير الثانى أثار قلقه •

ان ثمانية جنود المان قد قتلوا عند مرورهم بكمين كان قد أعدفى ضاحية تدعى « أوبرفييه »• وهذا أول حادث خطير من نوعه تشهده المدينة ••

سار فون شولتتز نحو الخريطة الضخمة للمدينة المعلقة على حائط مكتبه ، وهو يحمل التقرير فى يده • وظلت أصابعه تنزلق فوقهـا الى أن عثر على موقع « أوبرفييه » • ثم تنهد وتمتم بصوت خفيض :

ـ انهم اليوم فى الضواحى ٠. وغدا سوف يكونون فى باريس .

* * *

أخيرا تحرك القطار من محطة « بانتان » فتنفس الصعداء الالفان والخمسمائة سجين الـذين كانت تغص بهم عـرباته الخشـبية ذات الأسقف الحديدية .

من وراء العوارض الخشبية لاحدى عرباته ، ارتفع صوت غناء .. كان خافتا فى أول الأمر .. ثم أخذت بقية العربات واحدة بعد الأخرى تشترك فى الانشاد ، الى أن تحول الصوت الذى بدأ خافتا الى هدير قوى ينبض بالتحدى ويملا جنبات المحطة المعتمة .

كانت انغام «المارسيلييز» ـ النشيد الوطنى الفرنسى ـ الطافحة بالعنفوان هى التى تنبعث من أفواه ركاب عربات المواشى .

وخارج المحطة كانت عقارب الساعة الكبيرة التى تعلو بابهـــا تشير الى أن منتصف الليل على وشك الحلول .

توجه احد عمال السكة الحديد الى السيدة التى كانت تقف وحيدة بجوار دراجتها وقال فى صوت يخنقه التأثر بينما عيناه تدمعان :

ـ لقد انتهى الأمر .. انهم رحلوا ..

فركبت مارى ـ هيلين ليفوشو دراجتها وتوجهت الى بيتها ، وهناك ضبطت المنبه على الساعة الثالثة ثم ألقت بنفسها فى السرير ..

من غير أن تعرف لماذا ولا كيف ، كانت مصممة على أن تتابع قطار زوجها السجين الى أبعد ماتستطيع .



أخرج الرقيب هرمان بلومفرانك آخر محتويات أدراج دولابه فى الحقيبتين المصنوعتين من الورق المقوى الموضوعتين فوق سريره ، ثم اغلق الحقيبتين بتحزيمهما بحبل • فى احدى الحقيبتين وضع بلومفرانك « العملة الصعبة » التى قرر أخذها معه احتياطا للأيام القادمة التى كان يخشى أن تكون أياما قاسية ، وكانت تلك « العملة الصعبة » تتمثل فى خمسين زوجا من الجوارب الحريرية • !

ونزل الرقيب بعد ذلك الى ردهة فندق الكونتيننتال هذا ، الذى قضى فيه اربعة أعوام ، وقال لموظف الاستقبال بالفندق انه « سوف يعود قبل عيد الميلاد » ثم غادر الفندق وهو يحمل حقيبتيه •

ومثلما ظل يفعل يوميا طوال مدة الأربعة الأعوام السعيدة التى عاشها فى باريس كأحد جنود الاحتلال ، توقف بلومفرانك أمام كشك بيع الجرائد الواقع أمام مكتبه بوزارة المالية ، وطلب من البائعة سليطة اللسان نسخة من « باريزر تسايتونج » الجريدة الالمانية التى تصدر فى المدينة •

ردت عليه البائعة

ـ أيها الألماني الصغير .. لا توجد جريدة !

فقد كان عدد اليوم السابق من الجريدة وهو عددها رقم ٢٢١ هو آخر ما صدر منها . وكانت هيئة تحرير الجريدة قد غادرت باريس الى بروكسل فى الليلة الماضية .

رفع بلومفرانك حقيبتيه من جديد .. وبينما كان يفعل ذلك،لاحظ أن السيدة القصيرة الممتلئة الجسم ذات الشعر الرمادى المتجعد التى كثيرا ما صادفهاوهي تشترى جرائدها الصباحية من هذاالكشك .. واقفة بجانبه تنظر اليه وتبتسم . كان يعرف أن اسمها « كوليت » وأنها كاتبة .

سألته وهى لا تزال تبتسم :

ـ اذن قد نويت أن تهجرنا ؟..

والواقع ان بلومفرانك كان ينوى حقيقة هجر باريس فى ذلك اليوم السادس عشر من أغسطس ، مثل آلاف آخرين من الجنود الألمـــان غير المحاربين .

ففى اليوم السابق كانت القيادة الالمانية العليا قد ابلغت قيادة الجبهة الغربية ان هتلر صرح لرجال الجستابو وسـائر تشكيلات البوليس السرى وبقية من يؤدون أعمالا ادارية باخلاء باريس وتركها للقوات المحاربة ..

وكان سيل سيارات النقل التى استقلوها والذى أخذ يتدفق فى الاتجاه الشرقى ذلك الصباح ، يسبب أول ازدحام فى حركةالمرور تعرفه باريس منذ بداية الحرب .

وكان الباريسيون يتفرجون من مقاهى الأرصفة على الافواج الاولى من محتليهم وهى ترحل . دون ان يظهر على وجوههم أى تعبير ،وكان بعض الراحلين يصرخ قائلا : « سوف نعود لنقضى عيد الميلاد هنا » . وبعضهم يغنى أغنية«لن نقول وداعا بل الى اللقاء» بينما سياراتهم تمر أمام المقاهى المزدحمة .. وكانت بعض مجندات الجيش الالمانى — أو « الفئران الرمادية » كما كان الباريسيون يسمونهن بسبب قبح شكلهن فى الملابس العسكرية — كان بعض أولئك المجندات يبكين ويلوحن بمناديلهن ..

ولكن اعجب المناظر كان منظر الأسلاب التى كانت خارجة مع المحتلين الراحلين ..

كانت تلك الأسلاب تملأ سيارات نقل بأكملها ..

أحواض استحمام ومراحيض وقطع سجاد وقطع أثاث وأجهزة راديو وصناديق لا نهاية لها معبأة بزجاجات الخمور ، كانت ضمن الحاجيات التى تخرج مع الألمان أمام عيون أهل باريس الغاضبة فى ذلك الصباح .

وفى ميدان لامارتين كانت مجموعة من جنود الاشارة الألمان تضع فى سيارتها القطيع الصغير من الخنازير التى كانوا يربونها فى حديقتهم ، امام خيبة أمل جيرانهم العارمة !

ورأى ضابط النقل فالتر نولنج احد زملائه الضباط الذين كانوا يقيمون معه فى فندق ماجستيك ينزع الستائر المعلقة على نوافذ غرفته ويدسها فى حقيبته . وقد برر عمله لنولنج بقوله أنه ينوى تحويل تلك الستائر الى ثوب فيما بعد !

وفى فندق فلوريدا شاهد العريف إرفين هيسى رئيسه الملازم الأول تيرننج يلف أغطية سريره بحبل التليفون ، ثم يعود ويضع جهاز التليفون نفسه بداخل اللفة !

ولكن بعض الألمان تصرفوا تصرف السادة المهذبين عند رحيلهم .
فقد ترك أحد كبار ضباط فرق القمصان السوداء فى المنزل الذى كان يحتله بشارع فكتور هوجو فى حى « نييى » رســـالة الى « مضيفه المجهول » صاحب المنزل الأصلى ، يشــكره فيها على ما أبــداه نحــوه من حفاوة .. وذكر فى رسالته انه يترك المنزل كمــا وجـــده وأنه دفع حساب الجاز والكهرباء وســـدد اشــتراك التليفــون ودفع « بقشيشا » للبواب أيضا ! .. وأضاف أنه قد أعجب بمؤلفات فولتير التى وجدها فى المنزل والتى أعادها الى مكانها .. كما ترك ورقة مالية مع الرسالة « تعويضا عن الكأسين من الكريســـتال اللـــذين كسرا لسوء الحظ » فى أثناء اقامته !

وكانت لحظة الرحيل تشكل أزمة نفسية عنيفة بالنسبة لبعض الالمان .

الكابتن هانز فيرنر العامل بمركز التموين بشارع لابروز ، وجـد أنه أصبح يتحتم عليه أن يختار بين الجيش الألمانى وبين عشيقتـه انتوانيت شاربونييه .. فاختار انتوانيت . وعند ظهر ذلك اليوم ترك الشقة التى كانا يقيمان فيها معا فى شارع موزار وهو فى ثياب مدنية ومعه حقيبة صغيرة ، وتوجه الى الفندق المتواضع بشارع هنرى روشفور الذى أعدت له فيه انتوانيت مخبأ . فقد كان ذلك البطـل الفاتح للسابق قد اتفق مع صديقته على أن يختبئ هناك « الى أن تعود الظروف الطبيعية » ويتزوجا .

أما أوجين هومنز الضابط الذى كان رجال المقاومة قــد سرقوا مسدسه منذ ثلاثة أيام ، فقد فضل الواجب على عشيقته أننيك . فعدا أى اعتبار آخر كان هومنز لا يحب « أن يضع نفسه تحت رحمة امرأة غيورة » .

وبالنسبة لبعض الألمان الآخرين الذين كان من المقرر ان يرحلوا فى ذلك اليوم ، كان الحظ هو الذى حدد مصيرهم وليست العواطف أو الوطنية

السكرتيرة ماريا فوهز تذكرت أنها تركت ساعتها فى احد محال تصليح الساعات بشارع هاوسمان ، فذهبت لاستردادها .. قال لها « الساعاتي » عندما رآها « ألم تذهبى بعد ؟ يجب أن تهربى بأقصى سرعة » .. ولكن فرصة الهرب كانت قد أفلتت من ماريا . وكلفتها ساعتها المعطلة مقعدها فى القافلة الراحلة . وبدلا من أن ترحل اضطرت الى البقاء مع الآلاف من الجنود المحاربين الذين يستعدون للدفاع عن باريس

***

مثل سائر سكان ضاحية « سان كلو » كانت المدرسة تيريز جاربون تعرف ان نفق مرور السيارات الذى يقود الى الطريق الرئيسى ويمر تحت منزلها الحجرى الصغير . معبأ بالمتفجرات وهى الآن فى حالة ذعر قاتل ، فقد تلقت خبرا مرعبا من السيدة التى تنظف لها البيت والتى لا تخطىء الأخبار التى تنقلها أبدا .

لقد انبأتها تلك السيدة بأن الالمان يستعدون لنسف النفق .. ولو فعلوا ذلك فان منزلها الصغير الذى تطلق عليه اسم«مون ريف» - أى حلمى - ومئات المنازل الأخرى القائمة على سفح هذا التل الذى تتألف منه الضاحية ، سوف تدمر معه .

وفعلت تيريز الشىء الوحيد الممكن . اخرجت جميع قطع الصينى والخزف والزجاج التى لديها ولفتها فى أوراق جرائد وخبأتها تحت السرير ، ثم أنامت الدولاب على الارض وفتحت جميع النوافذ وهربت .

والواقع أن ذلك النفق الذى اطلق عليه الالمان اسم الشفرة« بيلتز » - أى عش الغراب - كان مصنعا للتوربيدات ، وحتى نهاية سنة ١٩٤٣ ، كان يزود أسطول الغواصات الألمانى العامل فى المحيط الأطلنطى بمعظم قذائفه . وعلى الرغم من ازدياد خسائر الألمان فى الغواصات وفتور حدة الحرب البحرية تبعا لذلك ، فقد استمر « بيلتز » ينتج التوربيدات بنفس معدله السابق ، ويكدسها فى عدد لا حصر له من الكهوف المجاورة لمساكن عماله المزدحمة .

وكانت هناك طريقة واحدة لتدميره هى نسفه من الداخـل • وكان هذ بالضبط هو ما كان حراسه الألمان من جنود البحرية يستعدون لفعله عندما جاءهم النقيب فيرنر ابرناخ خبير التدمير • وكان ابرناخ قد توجـه الى « بيلتز » ليرى ما اذا كان يســـتطيع أن يجـد فيه المتفجرات التى تلزمه لتنفيذ المهمة التى أوفد من أجلها الى باريس •

وقد ذهل ابرناخ فعلا رآه فى كهوف « بيلتز » المضاءةجيدا، اذ كانت هناك مئات خلف مئات من التوربيدات المعبأة بالمتفجرات التى لاينقصها شىء سوى أن تركب بها أجهزة التفجير التى كانت مكدسة بكثرة أيضا بجوارها •

قال ابرناخ لمساعده فى نبرات ملؤها الاعجاب :

ــ يا الهى •• اننا نستطيع نســف نصف كبارى العــالم وجسوره بهذه المتفجرات !

ثم التفت ابرناخ الى ضابط البحرية الذى كان يقوده داخـل النفق . وقال له فى صوت رسمى جاف :

ــ انى أصادر كل المواد الموجودة فى هذا النفق باســم قــائد منطقة باريس •

❊ ❊ ❊

على بعد مئات قليلة من الياردات من مدخل النفق ، صعـدت السيارة « الهورش » السوداء المخصصة لقائد منطقـة باريس الكبرى أحد الشوارع الجانبية ، وتوقفت أمام فيلا انيقة مقامة فوق مرتفع بشارع « بوزو دى بورجو » • هناك كان فى انتظار الجنرال فون شولتتز أهم مساعديه ، العقيد هـوبرتوس فـون آولوك ، الرجل المسئول عن الدفاع عن مداخل باريس •

وفى غرفة المكتب الفخمة التى كسيت جدرانها بخشب البلوط وقف الرجلان فى ذلك الصباح يضعان الخطوط العريضة لخطط الدفاع عن باريس .

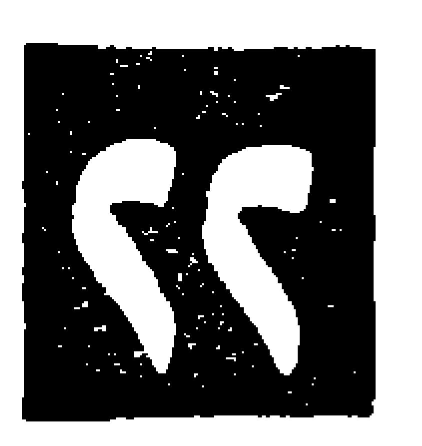
أمسك فون شولتتز بقلمه وحـــدد خطا عـــلى الخريطة الضخمة التى فرشت فوق البيانو الفاخر الموجود بالغرفة ، وبعد أن فرغ من ذلك ، التفت الى فون آولوك وقال له :

ــ هذا هو المكان الذى ستقف فيه .

نظر فون آولوك الى الخريطة واندهش لاكتشاف أن الخط الذى رسمه شولتتز يمتد على طول ستين ميلا فى قوس متقدم كثيرا عن الخط الذى كان قد اقترحه سلفه الجنرال فون بوينبرج ــ لنجسفلد .

وكان فون شولتتز يعلم ان فون آولوك لا يستطيع الصمـود فى ذلك الخط الا اذا زود بتعزيزات كبيرة .. ولكن هذا الامر لم يكن يقلقه . فقد تلقى وعودا بأن يحصل عـــلى ما يلزمه من تعزيزات . والى أن تصل الامدادات المنتظرة فان فون آولـوك يستطيع بالعشرة الاف جندى الموضوعين تحت قيادته أن ينشىء حاجزا أمام مدخل المدينة .

كما وافق شولتتز على اقتراح تقدم به العقيد فريتز مايزى قائد لواء المظلات الحادى عشر ، يقضى بتعزيز قوات فون آولـوك بجميع المدافع المضادة للطائرات الموجودة فى باريس حاليـــا ، والتى يمكن استخدامها كمدافع مضـــادة للدبابات .. فلم يكن القائد الالمانى ولا رجال هيئة أركان حربه يخشون الغـــارات الجوية ، لأنهم كانوا مقتنعين بأن طائرات الحلفـاء لا يمكن أن تضرب باريس .



تحت أشعة الشمس الآخذة فى الارتفاع ، بدت أبراج كاتدرائية سانت اتيين فى مدينة « مو » على نهر المارن ، حمراء اللون لمارى ـ هيلين ليفوشو ، وهى تتجه نحوها فوق دراجتها • وكانت قد مضت عليها ساعتان قطعت خلالهما ستة وعشرين ميلا ، وهى تطارد القطار الذى يحمل زوجها فى عربة نقل مواشى عبر وادى المارن الى نانسى ثم الى نهر الراين .

ـ وكان أملها فى أن تلحق بالقطار قد بدأ يخبو .. ففى كل محطة صغيرة مرت بها فى طريقها وسألت عن ذلك القطار . كان الرد الذى تلقته واحدا ، وهو ان القطار قد مر منذ ساعتين • ومهما زادت من سرعتها ، فقد ظل الزمن الذى يفصل بينها وبين القطار واحدا ، لايريد ان ينقص ابدا •

فى تلك الحظة كان بيير على بعد عشرين ميلا منها ، يكافح من أجل البقاء حيا فى القطار الذى توقف داخل نفق امتلأ بالدخان ..

كانت الرسالة العاجلة التى بعثت بها حركة المقاومة فى باريس شمالا ، قد وصلت في الوقت المناسب ، ولذلك فان بعض

الفدائيين التابعين للحركة كانوا قد نسفوا خمسا وسبين ياردة من الخط الحديدى المتجه الى نانسى ، بعد النفق بقليل . وهكذا اضطر القطار الى التوقف

ولكن بما أن اصـــــلاح الخط الحديدى المدمر كان لابد أن يستفرق معظم النهار ، فقد خشى رجال الصاعقة الذين يرافقون القطار أن يتعرضوا لهجمات رجال المقاومة لو ظل القطـــار فى الموقع المكشوف الذى وقف فيه والذى تقع عـلى أحد جانبيه تلال وصخور .. فأمروا بأن يتراجع الى داخل النفق .

وفى داخل عربات نقل المواشى المغلقة عليهم ، كان المساجين قد نسوا منذ مدة طويلة ، موجة النشـوة التى كانت قد عمت القطار بأجمعه عندما ادركوا أن رجال المقاومة قد خربوا الخط ، فرجال الصاعقة الالمان كانوا قد تركوا القطـــار ينفث الدخان الاسود لمدة ساعتين فى النفق المزدحم ، فأصبح المساجين فى حالة تقرب من الاختناق .

وكانت احدى عربات النساء قد اصبحت ارضها لزجة لكثرة القيء الذى تجمع فيها ، بيسما كانت النساء المتجمعات فى مركبة ثانية واثقات تماما من أن الالمان قرروا قتل المساجين بواسطـة الخنق .

ومع ذلك فان كل دقيقة بؤس فى النفق الخانق الكريه الرائحة كانت تقرب قافلة المساجين خطوة من الخلاص . فوراء بعض الصخور المحاطة بالاشجار على سفح تل يواجه فتحـة النفـق ، كان خمسة رجال يراقبون وينتظرون . كانوا هم الذين نسفوا الخط الحديدى ، وكانوا يعلمون انه فى طول وادى المارن كان هناك رجال من أعضـــاء حركة المقـــاومة يحاولون فرادى وفى جماعات الوصول الى هذا المكان . وعندما يصل عدد كاف منهم سوف يهاجمون حراس القطار الذين يبلغ عددهم مائتين .

ولكن التعزيزات التى كان ينتظرها الرجال الخمسة وصلت متأخرة فقد شاء الحظ الساخر ان يقع بعض حراس القطار من رجال فرق الصاعقة الالمانية على القطار الوحيد الآخر الذى كان موجودا فى المنطقة كلها ، على بعد ثلاثة أميال فقط من النفق . كان قطارا محملا بالمواشى الحقيقية ، المخصصة للجيش الالمانى ، وكان واقفا بمحطة « نانتاى » . وقد طرد رجال الصاعقة المواشى منه وصادروه من أجل مساجينهم . وبعد ذلك بدقائق ، أخرج الالمان قطار المساجين من النفق تمهيدا لحمل ركابه على قطع المسافة التى نسف الخط الحديدى فيها على اقدامهم ، لكى يركبوا بعد ذلك القطار الجديد .

عندما خرج القطار من ظلام النفق ، كانت تتجه الى نفس المكان شابة تركب دراجتها وتسير على الطريق النهرى المنعرج المحاذى لخط السكة الحديد . كانت مارى - هيلين لبفوشو قد لحقت اخيرا بالقطار . وبين الاشكال السوداء التى تدفقت من عرباته وهى تسعل وتنتفض ، تعرفت على زوجها بيير ..

فى تلك اللحظة لم يكن هناك شىء فى الوجود ، ولا حتى حرس الصاعقة ، يستطيع أن يحول بينها وبين التحدث الى زوجها . فاندفعت وهى ممسكة بدراجتها ، تجرى نحوه عبر المسافة القصيرة التى كانت تفصل بينهما .

عندما أصبحت بجانبه ورأت هزاله وقذارته ، فعلت أول شىء دفعتها اليه غريزتها دون تفكير : اخرجت منديلا أبيض من جيبها ومسحت سواد دخان الفحم عن عينيه .

ومن غرائب المصادفات أن الحارس الذى كان يقف وراء بيير هز كتفيه فى عدم مبالاة ولم يعترض على سيرها بجوار ذلك الرجل الشاحب اللون المتعثر الخطى الذى كان زوجها . فبقيت

معه ، يدها فى يده ، حوالى الســـــاعتين . وقد كانت فى ذلك الصباح مستعدة لان تقطع الارض من اقصاها الى اقصاها على دراجتها ، في سبيل أن تلتقي به ولو لدقيقتين .

وتحدث الزوجان طويلا خلال الفترة التى اتيح لهما أن يلتقيا فيها فى اثناء مسيرة قافلة المساجين القاسية ، ولكن بضع كلمــات فقط من تلك التى سمعتها من زوجها ستظل عالقة فى ذهنهـــا مدى الحياة . فقد أكدت لها تلك الكلمات التى قالها بيير مازحا . أن تعذيب الجستابو له ، وان اضنى جسده ، الا أنه لم يؤثر فى روحه القوية ولم يسلبه قدرته على المزاح .

قال لها بيير :

ـ انى أعدك بشيء واحد يا حبيبتى . بعد هذه الرحلة ، لن أعارضك أبدا بحجة ارتفاع التكاليف عندما تطلبين أن نسافر فى القطارات ذات عربات النوم !

* *

من فوق تل يشرف على خط السكة الحديد ، أخذ خمسة رجال يبكون وهم يشاهدون المساجين يعبأون فى عربات نقــل المواشى الجديده التى نقلوا اليها ، ثم وهم يشاهدون القطـــار يختفى فى أحد منحنيات الوادى وهو فى طريقه الى مدينة نانسى . لقد فشلت خطتهم فى نصب كمين لهذا القطار . وعـــلى الرغم من انهم لم يكونوا يعرفون ذلك ، فانها كانت آخر فرصة أمام حركة المقاومة لوقف ذلك القطار بالقوة عن مواصلة السير .

وعندما عاد القطار الى الظهــور أمامهــم عند طرف الــوادى البعيد شاهد الرجال الخمسة جسما صغيرا ابيض يتبعه .. انها مارى ـ هيلين ليفوشو التى كانت الرحلة بالنسبــة لهــا لانزال فى بدايتها !



أضيء النور الأحمر على لوحة التليفونات التى يجلس أمامها ضابط الاشارة الملازم ارنست برسندوف فى الدور الثالث من فندق « ميريس » فتنبهت جميع حواسه ، لان ذلك النور يعنى ان برلين أو راستنبورج تطلب الحاكم العسكرى لباريس على الخط المباشر الذى يربطهما به .

اتضح أن المكالمة آتية من مقر القيادة العليا لهتلر فى راستنبورج ، وعرف الضابط الشاب ان الجنرال ـ أوبرشت يودل هو الذى يتحدث على الطرف الثانى من الخط ؛ من صوته الآمر الجاف . حول الشاب المكالمة الى الخط الخاص بالجنرال فون شولتتز ، وقرر أن يتصنت على الحديث مخاطرا بتعريض نفسه للمثول أمام محكمة عسكرية .

وانتفض برسندوف عند سماع الكلمات الاولى التى نطقها يودل ، فقد كان يسأل شولتتز عما وصل اليه التدمير الذى صدر الأمر باجرائه فى باريس · وأضاف يودل أن الفوهرر قد طلب تقديم تقرير اليه عن الموضوع فى اجتماع القيادة العليا النهارى الذى ينعقد عند الظهر يوميا ، أى بعد أقل من ساعة ..

ساد الصمت برهة قصيرة ، ثم رد شولتتز قائلا انه « لسوء الحظ » لم يشرع فى التـــدمير بعد ، وأنه لا يزال يستعد له ، فخبراء التدمير لم يصلوا الا منذ اربع وعشرين ساعة .

أعرب بودل عن خيبة أمله الشديدة ، وقال ان الفوهرر كان ينتظر في صبر نافد سماع غير هذه الاخبار .

أعاد شولتتز على مسامع بودل الحجج التى كان قد استخدمها فى اجتماع القيادة الغربية بالامس ، وقال له ان تنفيذ عمليات التدمير سوف يدفع المدينة الى حمل السلاح ضـــد الالمان . واقترح أن يمضوا فى تحضير كل ما يلزم لاجراء التدمير على الا يبدأ تنفيذه الفعلى الا بعد بضعة أيام .

قال بودل انه سيعرض توصيته على الفوهرر ثم يرد عليه ، ولكنه أبدى شكه فى أن يوافق هتلر عـــلى اجراء أى تعديل فى الخطط الموضوعة . وأبلغه أن عليـــه أن يمضى بأقصى سرعة فى تحضيراته .

وانتهت المحادثة بكلمات مطمئنة من شولتتز . قال لرئيس أركان حرب القيادة العليا الالمانية ان باريس هادئة تماما ، وان الباريسيين لم يجرأوا على القيام بأية حركة .

* *

نزل المطر بعد الظهر وأغرق ملاعب نادى التنس الذى يحمل أسم « جان بوان » فتصور المشرف على الملاعب انه لن يستقبـل أى زوار فى ذلك اليوم غير انه كان مخطئا ، اذ ما لبث أن جـــاء الى النادى واحد من أحسن زبائنه هو جاك شابان ـ دلماس الذى وصل مبتلا تماما ويحمل فى يده دجاجة مذبوحة .

ولم يكن رجل النـــادى قد رآه منـــذ حوالى الاسـبوع ، فسأله :

ـ اين كنت طوال هذه المدة ؟

فرد شابان ــ دلماس قائلا :

ــ فى فرساى .. لأحضر هذه الدجاجة اللعينة !

* *

فى حر الجزائر المحرق ، وبنـــاء على عدة أسباب من بينهـا المعلومات التى حملها من باريس شابان ــ دلماس .. اتخذ شارل دى ديجول قرارا ..

انه سوف يذهب الى فرنسا .

والآن وتحت مروحة السقف التى تدور فى كســـل مثيــر للاعصاب ، يقوم ديجول بأبغض عمل اليه يتصل بهذه الرحلة . انه يطلب اذنا بالقيام بها من الجنرال الانجليزى ســير هنرى ميتلاند ولسون القائد الرئيسى للحلفاء فى الجــزائر . فقد كان ولسون هو المسئول عن تحويل طلب ديجول الى القيادة العليـا للحلفاء فى أوربا لتبت فيه .

فحتى فى هذه المرحلة ، كان لا يزال على ديجول أن يتقيــد باجراءات الحصول على موافقة حلفائه لكى يزور فرنسا .

اكتفى ديجول بان يقول لحلفائه فى الطلب الذى يكتبــه انه سوف يقوم بجولة تفتيشية روتينية فى ذلك الجزء من فرنســا الذى تم تحريره على يد الحلفاء . ولكن ما كان ينوى عمله فعلا، كان شيئا أكثر طموحا ..

كان ينوى أن ينقل نفسه أولا ، ثم حكومته الى فرنسا والى باريس بالذات .

كان ديجول مصمما سواء أعجب ذلك الحلفاء أو لم يعجبهـم ، وسواء اعترف روزفلت أو لم يعترف .. كان مصمما على ان يستقر هو وحكومته فى عاصمة فرنسا .

وقد نعمد الا يكشف عن نواياه الحقيقية للقيادةالعليا للحلفاء فى أوربا لسببين :

أولا ــ لانه لم يكن يعتبر ان ذلك من شأن تلك القيادة .

وثانيا ــ لأنه كان مقتنعا بأنه لو أدرك حلفاؤه الأمريكيون ما يعتزم الاقدام عليه ، فانهم سيحاولون ابقاءه فى الجزائر . وكان هذا اجراء لم يكن فى نيته أن سمح به .

كان رئيس فرنسا الحرة الشديد الكبرياء مصمما على أن يدخل فرنسا وباريس بأية طريقة . وكان مصرا على أن يصل الى هدفه سواء ساعده حلفاؤه أو لم يساعدوه ، بوسائله الخاصة ، وعلى حساب المخاطرة بحياته اذا لزم الأمر .

***

فى قافلة السيارات المريحة التى اتخذ منها مقرا لقيادته فى « شيلبارست » أخذ الجنرال أيزنهاور يعد فى ارتياح عدد القوات الألمانية المتزايد الذى تنغلق عليه فجوة « فاليز » . وكان ذهنه قد أصبح مشغولا منذ الآن بالمرحلة التالية من معركة فرنسا .. بالاندفاع نحو نهر السين وما وراءه .

خلال مراجعته للاستعدادات التى أعدها لتلك المرحلة ، لم يشعر بأى قلق خاص حول الموقف فى باريس .. فلم يكن أحد قد كلف نفسه بابلاغ القائد الأعلى لقوات الحلفاء بأن ثورة على وشك النشوب فى العاصمة الفرنسية . ولم يكن التحذير الذى تضمنته رسالة شابان ــ دلماس قد وصل الى القائد الذى كان شابان ــ دلماس يتطلع الى اقناعه بتغيير خططه .

فوق هضبة تطل على قرية « توسون » على بعد اربعين ميلا جنوبى باريس ، كان عشرات من الفدائيين الفرنسيين يتـــدربون ليليا منذ أسابيع على القيـــام بعملية خطيرة . كان الهدف من تدريبهم الشاق هو جعلهم مستعدين لاستقبال طائرة صغيرة فوق هضبتهم . ونقل راكبها بعد ذلك الى احدى السيارتين الالمانيتين اللتين كانتا قد سرقوهما وخبأوهما مع أسلحتهم الوفيرة حـول الهضبة ، ثم تهريبه الى مكان معين فى باريس . وكان على قسم منهم أن يشكلوا فرقة انتحارية بعد ذلك ، مهمتها اغلاق الطريق خلف السيارة .

هذا المساء ، أعجب قائد أولئك الفدائيين بنوع خاص بالأسلوب الذى مثلوا به المراحل المختلفة لتلك العملية . . وكان قد عاد قبل ذلك بقليل من اجتماع عقده مع الرجل الذى أشار عليه بتدريب رجاله على مختلف التحركات التى تتطلبها هذه العملية .

ففى ظلام كنيسة « سان سولبيس » كان قد التقى بشابان ـ دلماس وتلقى منه كلمة السر التى تعلن بدء تنفيذ تلك العملية ، وعرف انه سوف يسمع كلمة السر هذه من الراديو ، وان عليه أن ينتظر سماعها منذ الآن فى أى وقت .

فأمر قائد الفدائيين اثنين من كبار مساعديه بأن يستمعا الى محطة الاذاعة البريطانية على مدار الساعة يوميا بالتناوب ، فى انتظار اذاعة جملة : « هل افطرت جيدا يا جاك ؟ » .

فلو اذيعت تلك الجملة التى تتألف منها كلمة السر ، فان طائرة صغيرة سوف تهبط سرا بعد اذاعتها بست ساعات فوق الهضبة ، وتحمل اليهم الزائر الهام الذى يستعدون لاستقباله منذ شهرين ونصف شهر .

ونظر قائد الفدائيين الى الرجلين اللذين أبلغهما بهذا الأمر ، وقال لهما :

الآن استطيع أن أبوح لكما باسم الرجل الذى سوف تحمله تلك الطائرة فى حالة قدومها .. انه سيكون الجنرال ديجول ! »



كان مارسيل ماركارى أمين قصر لوكسمبورج هو الفرنسى الوحيد المصرح له بدخوله ، منذ ان تحول فى ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٠ الى مقر لقيادة قوة الطيران الالمانية فى فرنسا • وكان يعلم عند وصوله اليه فى صباح السابع عشر من أغسطس سنة ١٩٤٤ أن قائد الطيران ورجاله قد غادروا باريس أمس وانتقلوا الى مدينة « ريمس » تاركين القصر لقوة من رجال الصاعقة •

ولم يكن ماركارى يرى فى رحيلهم ما هو أكثر من أنه يحدد نهاية فصل قصير عابر سرعان ما سوف ينسى فى التاريخ الطويل لهذا البناء العريق الذى يحبه كثيرا . ولكنه رأى فيه أيضا بشيرا ينبىء باقتراب تحرير باريس . وهكذا فانه سوف يتاح له قريبا ان يعيد الى عاصمة بلاده ـ سليما تماما ـ هذا القصر الذى ظل يحرسه طوال السنوات الأربع الماضية كما لو كان قصره الخاص •

كان هذا القصر الهائل الرمادى اللون قد أوشك أن يصبح بالنسبة له شيئا حيا • وفى كل مرة كان حذاء المانى يسحق سيجارة على أرضه « الباركيه » ، ويلاحظ ماركارى ذلك ، كان يحس بان السيجارة تحرق جلده •

هذا الصباح بدأ يومه كالمعتاد بجولة بين كنوز القصر .. دخل أولا المكتبة التى تحتوى على ٣٠٠ الف كتاب ثم طاف باللوحات النادرة المعلقة فى مختلف القاعات ، وأخيرا اتجه الى الفناء الداخلى للقصر الذى يحمل اسم « فناء الشرف » والذى كان يعلم ان الألمان يعدون فيه مخبأ تحت الأرض .

قبل ان يخرج الى الفنـــاء اعترض طريقه حارس من رجال الصاعقة يحمل مدفعا رشاشا ، اشار له به أن يبتعد .. ولكن خلال اللحظة الخاطفة التى نظر فيها الى الفناء أدرك ماركارى لماذا أبعده عنه .

داخل الفناء كانت قد اصطفت اثنتا عشرة سيارة نقل من سيارات الجيش الألمانى ، اخذ عمال من أعضاء النقابة المتعاونة مع قوات الاحتلال ، ينزلون منها صناديق خشبية ثقيلة ٠ وكان كل صندوق قد ختمت عليه كلمـة « خطر » ورسمت عليه صورة جمجمة وعظمتان متقاطعتان ٠

كما رأى بجانب الســيارات كوما من أجهـزة التفجير ومن الأسلاك .

وأدرك ماركارى معنى ما رآه .. أدرك أن الألمان يستعدون لنسف القصر الذى ظل يحرسه فى غيرة شديدة طوال أربع سنوات .. فبدأ يفكر ، فى سرعة يائســة ، فى طريقــة يمكن بواسطتها أن ينقذه ..

واخيرا طرأت فى ذهنه فكرة ٠٠ قال لنفسه أن هناك رجلا ربما يستطيع وحده دون الناس جميعا احباط مشروعات الالمان ٠٠ إنه الكهربائى فرانسوا دلبى ٠ فهو يعرف كل بوصة من الاســـلاك الكهربائية الموجودة فى القصر ٠٠ وهى الاسلاك التى سوف يحتاج اليها الالمان لاطلاق متفجراتهم ٠

ولم يكن قصر لوكسمبورج هو المكان الوحيد فى باريس الذى بدأت تنفذ فيه فجأة وفى سرية فى ذلك الصباح الاجراءات التى أمر بها هتلر . ولا كانت المصانع ومحطات الكهرباء هى الأماكن الوحيدة التى شملتها تلك الاجراءات .

فمبنى مجلس النواب ومبنى وزارة الخارجية اللذان يتألف منهما احد جوانب ميدان الكونكورد الفريد فى جماله ، كان يجرى الاستعداد لنسفهما أيضا ، وكذلك سنترالات التليفونات ومحطات السكك الحديدية والكبارى والمنشئات العملاقة لشركة « سيمنز ـ وستنجهاوس » فى فونتينبلو ..

وفى فندق « ميربس » كان الرجل الذى حركت قيادته هذه الاستعدادات الواسعة النطاق ، يقوم بزيارته الثانية للمكاتب التى وضع فيها خبراء التدمير الذين ارسلوا له من برلين . كانوا قد تفقدوا قبل الظهر خمسة مصانع كبرى من بينها مصانع سيارات « رينو » ومصانع طائرات « لويس بليريو » . وعند زيارتهم لكل مصنع كانوا يضعون على الرسومات التفصيلية التى يحملونها لذلك المصنع علامات × حمراء فوق الأماكن التى ينبغى وضع المتفجرات فيها .. وقد أطلعوا فون شولتتز على تلك الرسومات ، فوجدها غارقة فى بحر من علامات × الحمراء .

عندما تركهم شولتتز وعاد الى مكتبه وجد رئيس أركان حربه العقيد فون اونجر فى انتظاره . ناوله فى صمت ورقة برقية زرقاء صادرة من القيادة العليا للجيوش الألمانية فى الغرب مكتوب على رأسها : « عاجل وسرى للغاية » وتحمل توقيع المشير فون كلوجه . فى نهاية الفقرة الرابعة منها وردت جملة شدت انتباه فون شولتتز اليها مباشرة ، وكان نصها :

« انى أصدر الأمر بتنفيذ عمليات التدمير والتخريب المعدة لباريس » .

فى فندق ماجستيك ، كان رجلان يجريان فى لهفة مستميتة بين الممرات والغرف فى ذلك الصباح بحثا عن توقيع ، دون أن يعثرا على أحد يقدمه لهما . فالمكتب الألمانى للادارة العسكرية لفرنسا كان قد انسحب الى مكان آخر أكثر أمنا من باريس . وبدا لقنصل السويد العام راوول نوردلنج ولحليفه الوفى « بوبى بندر » - ضابط المخابرات الالمانى الذى كان يعمل سرا ضد حكومة بلاده النازية - انهما قد وصلا بعد فوات الأوان .

ففى هذا الفندق الذى وجداه خاليا الا من مخلفات الذين رحلوا عنه ، كانا يأملان ان تكلل بالنجاح الجهود المضنية التى بذلاها خلال الأربعة الأيام الماضية فى سبيل وضع الثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وثلاثين سجينا سياسيا المتبقين فى باريس تحت حراسة قنصل السويد ، لانقاذهم من المذبحة التى كانا واثقين من انها تنتظرهم .

قبل وصولهما الى الفندق بنصف ساعة كان الجنرال فون شولتتز قد قال لهما ان المساجين السياسيين لا يهمونه بالمرة ، وانه مستعد لتنفيذ أية اتفاقية تقضى باخلاء سبيلهم اذا كانت تلك الاتفاقية تحمل توقيع أحد ضباط الادارة العسكرية المختصة بشأنهم . وكانت كلماته تلك أول بادرة مشجعة لاحت للرجلين خلال الأيام الأربعة الماضية .

وكاد الرجلان يغادران فندق ماجستيك فى باريس ، عندما سمعا فجأة صوت رنين جسم معدنى يتردد صداه فى الممرات الخالية ، فاتجها نحو مصدر الصوت ليجدا الضابط يوزف هوهم يغلق ادراج دولابه المعدنى فى غضب بعد أن قذف بمحتوياتها فى نار المدفأة .

كان هذا الضابط الذى يشغل منصب رئيس اركان حرب الادارة العسكرية لفرنسا هو آخر من تبقى فى هذا الفندق الضخم ، وكان يستعد لمغادرته بعد دقائق ليلحق ببقية زملائه .

عندما دخل عليه نوردلنج وبندر ، وأخذا يشرحان له سبب قدومهما ، لم يخف هوهم ضيقه وتبرمه وتعجله .. واخبرهما أنه لا يستطيع أن يتصرف فى شىء الا بأوامر من رئيسه الجنرال كيتزنجر الذى أصبح الآن فى مدينة نانسى .

ولكن القنصل السويدى لم يكن مستعدا لتركه بفلت منه بهذه البساطة ، فقال له أنه مفوض من الحلفاء بأن يعرض عليه خمسة جنود أسرى من الألمان فى مقابل كل سجين سياسى فرنسى يفرج عنه .

وكان نوردلنج كاذبا فيما قاله .. ولكن كل ما كان يهمه فى ذلك الوقت هو ان يحمل هوهم على وضع توقيعه على ورقة ، لكى يتعلل فون شولتتز بهذا التوقيع ويفرج عن المعتقلين . فقد أحس نوردلنج بأن شولتتز لا يمانع فى ذلك ، وان كل ما يريده هو توقيع أحد المسئولين مباشرة عن المساجين ليتستر وراءه .

وأحدثت كذبة القنصل أثرها ، فقد تغير موقف هوهم وبدأ يهتم بالموضوع . وقال الضابط الألمانى أنه على استعداد لأن يدرس هذا الاتفاق اذا تم وضعه فى الصيغة القانونية المناسبة . لكنه نظر الى ساعته واستطرد قائلا : « ولكنى مضطر الى الرحيل بعد ساعة واحدة » .

فخرج نوردلنج وبندر جاريين من مكتبه ليبحثا عن محام يضع « صفقة المتاجرة بالمخلوقات البشرية » هذه فى الصيغة القانونية .. وعادا قبل انتهاء الساعة بثوان الى هوهم الذى وقع الاتفاقية ، وهو يعتقد أنه يستعيد بذلك أكثر من ثمانية عشر الفا من الجنود لبلاده .

وقد تضمنت الاتفاقية أمرا الى سلطات السجون والمعتقلات والمستشفيات التى تحتجز المساجين بتسليمهم نوردلنج ليصبحوا تحت حراسته ٠

* * *

منذ ان غادرت قافلة المساجين السياسيين الأخيرة التى جرى ترحيلها الى المانيا سجن « فريسن » لم يكن لويس ارمان ـ موظف السكة الحديد الذى كان يتمنى أن يكون ضمن أعضاء تلك القافلة ليتخلص من تعذيب الجستابو المستمر له ـ لم يكن قد ذاق أى طعام ٠ فالغذاء الوحيد الذى قـــدم له كان قطعـــة متعفنـــة كئيبة المنظر من الجبن ، فى حين كان هو يكره الجبن ولم يكـن قد اكله قط طوال حياته .. وعلى الرغم من جوعه الشديد فقد عجز عن اكل قطعة الجبن التى أمامه .

كان يشعر بالدوار لشدة الجوع ، فلما سمع أصوات أبواب الزنزانات وهى تفتح الواحدة بعد الأخرى ، ظن فى أول الأمر ان خياله هو الذى يصـــور له ذلك ٠ غير أنه ما لبث ان أدرك أن الأبواب التى تفتح لايعاد اغلاقها ، فتمتم صلاة قصيرة وأعد نفسه لمواجهة الموت . فقد أيقن ان فرقة اطلاق النار تنتظر المساجين المتبقين فى فناء السجن لتبيدهم ..

ولكن قنصل السويد العام راوول نوردلنج كان هو الواقف فى فناء السجن وليس فرقة اطلاق نار ألمانية . وكان ينظر الى المساجين وهم يساقون الى الفناء لعدهم ، بعد أن تلقى وعدا من سلطات السجن بالافراج عنهم فى الغد تنفيذا للامر الذى حمله اليهم بتسليم المساجين اليه .

وكان عدد المساجين ٥٣٢ بينهم ثلاثة محــكوم عليهم بالاعدام .
تابع نوردلنج عملية عد المساجين فى صبر نافد ، فقد كان لا يزال أمامه الكثير الذى يجب ان يعمله فى أسرع وقت ..

كان لا يزال عليه أن يذهب الى سجن رومانفيل والى معتقل درانسى والى معتقل آخر خارج منطقة باريس فى « كومبيين » .

كما كان نودرلنج يرجو أن يتمكن ايضا من ايقاف القطار الذى يحمل بيير ليفوشو والألفين والخمسمائة سجين الآخرين الى المانيا ، قبل أن يبتعد كثيرا ذلك القطار

***

طلب الفريق ديتريش فون شولتتز خريطة لباريس ، ومر بيده فوقها بسرعة ، ثم وضع اصبعه على بقعة فيها لم يخترهـا لأى سبب معين بالذات ، وقال لزائره :

ـ لو فرضنا ان رصاصة أطلقت على احدى جنودى من هنا فى شارع الأوبرا .. فى هذه الحالة سوف أحرق كل مبانى الناحية واطلق النار على سكانها جميعا .

واكد للزائر ان لديه كل الوسائل التى تمكنه من أن يفعل ذلك ، فتحت تصرفه ٢٢ الف جندى معظمهم من رجال الصاعقة ومائة دبابة « نمر » وتسعين طائرة .

ارتعد بيير شارل تيتنجيه عمدة باريس المعين من قبل حكومة فيشى عند سماع هذه الكلمات .. فقد جاء على أمل أن يجد رجلا مستعدا للتفاهم ، ولكنه ووجه بقائد صارم عنيد يهدده بكل بساطة بمسح مناطق بأسرها من باريس .

وكانت محادثة تليفونية من مجهول هى التى دفعته الى زيارة قائد منطقة باريس الالمانى ، فقد ابلغه محدثه الذى لم يتعرف عليه أن الالمان قد شرعوا فى اخلاء العمارات المحيطة بكبارى باريس من سكانها تمهيدا لنسفها .

والتفت شولتتز الى الخريطة من جديد واخذ يمر باصبعه على منحنيات نهر السين وهو يقول :

ـ كضابط سابق يا مسيو تيتنجيه ، لا شك انك تدرك أن هناك اجراءات معينة يتحتم على أن اتخذها فى باريس . ان واجبى هو أن أعرقل الى أقصى مدى فى استطاعتى تقدم الحلفاء ».

ومضى الجنرال البروسى الصارم يشرح فى صوت جاف أجش الاجراءات التى ينوى اتخاذها .. فقال أنه سوف يدمر كبارى المدينة ، ومحطات الكهرباء فيها ، والسكك الحديدية ، وكافة وسائل المواصلات .

فقال تيتنجيه الذى جلس مذهولا أمامه .. قال لنفسه :

ـ ان هذا الرجل يستعد لتدمير باريس ببساطة ولا مبالاة كاملتين .. تماما كما لو كانت باريس مجرد قرية صغيرة فى أوكرانيا !

ولم يكن لدى العمدة أية أوهام بشأن السلطات المتبقية له ، فأدرك أنه ليس أمامه الا أن يفعل شيئا واحدا ، هو أن يحاول أن ينقل الى ذلك الجندى القاسى الذى يتحدث اليه فكرة عن الارتباط العاطفى الذى يحسه نحو باريس . وزوده غضب شولتتز المكتوم بالفرصة المناسبة ، فقد أصابته نوبة طويلة من السعال نتيجة للانفعالات الحادة التى كان يكبتها .. فاقترح عليه تيتنجيه الخروج الى الشرفة المطلة على حديقة « التويلرى » .

هناك وامام المنظر الهادىء الجميل الممتد أمامهما وجد تيتنجيه الحجة التى كان يبحث عنها .. فأشار الى القبة الذهبية لمبنى « الانفاليد » التى كانت تلمع فى شمس الظهيرة ، والى برج ايفل الصاعد نحو سماء أغسطس الصافية ، والى الأطفال الذين كانوا يلعبون حول البركة المستديرة فى حديقة « التويلرى » والى فتاة حسناء كانت تقطع شارع ريفولى تحتهما على دراجتها ، والى الأجنحة الرمادية لمتحف اللوفر التى تحتضن حدائقه الخضراء ،

والى التنسيق الرائع لميدان الكونكورد .. اشار الى هذا كله وقال :

ـ كثيرا ما تتاح فرص التدمير للجنرالات .. ولكن نادرا ما تسنح لهم فرصة لكى يحافظوا على شىء جميل . تصور انه قد يكون من نصيبك ان تقف على هذه الشرفة مرة اخرى ، كسائح ، وان تنظر ثانية الى هذه الانصاب التى اقمناها لافراحنا وآلامنا ، وان يكون فى وسعك ان تقول : كنت استطيع تدمير هذا كله ، ولكنى حافظت عليه كهدية للبشرية .. يا سيدى الجنرال ، الا يساوى ذلك كل امجاد الغزاة ؟

ظل فون شولتتز صامتا برهة ، ثم التفت الى تيتنجيه وقال فى صوت خفت حدته قليلا عن ذى قبل :

ـ انك محام جيد عن باريس يا مسيو تيتنجيه . لقد قمت بواجبك فى اخلاص وامانة . ولكن انا أيضا ـ كجنرال المانى ـ يتعين على أن اؤدى واجبى فى امانة واخلاص كذلك .

***

كان البريجادير ـ جنرال « العميد » جوليوس هومز مضطرا الى الصراخ وهو يتحدث فى التليفون من مكتب لندن للقيادة العليا للحلفاء فى أوربا ، مع مساعد وزير الخارجية الأمريكية فى واشنطون جون ماكلوى ، فالخط لم يكن واضحا .. ولكنه كان فرحا بتلك المحادثة .. انها اتاحت له فرصة ان يبحث مع واشنطون مباشرة أهم المشاكل التى كانت تواجهه عندئذ ، وهى رغبة ديجول فى السفر الى فرنسا .

بعد ان فرغ ماكلوى من ابلاغه بالشئون التى طلبه تليفونيا من اجلها .. قال له هومز الذى كان يشغل منصب مدير الشئون المدنية بقيادة الحلفاء العليا :

ـ والآن فيما يختص بزيارة ديجول لفرنسا .. نريد أن نتأكد من أنه لا اعتراض لكم عليها .

فسأله ماكلوى :

ـ أين يريد ان يذهب .. ولماذا ؟

فأوضح له هوفر ان الزعيم الفرنسى يريد ان يزور المناطق التى تم تحريرها فى فرنسا . وأضاف أنه ربما يريد ان يكون «جاهزا» للذهاب الى باريس اذا أمكنه ذلك فى المستقبل غير البعيد .

سأل ماكلوى وكذلك مساعده العسكرى الميجور ـ جنرال « اللواء » وليام هليدربنج عن المدة التى يريد ديجول أن يقضيها فى فرنسا .. فرد هومز قائلا أنه لا يدرى .

فاستنتج ماكلوى ومساعده من ذلك أن ديجول ربما يريد البقاء فى فرنسا .. وقالا لهومز :

ـ هذه ليست مجرد زيارة فى الحقيقة ، وهناك فى الأمر ما هو أهم من ذلك .

وطلبا منه أن يسأل ديجول ما اذا كان ينوى البقاء فى فرنسا أو القيام بزيارة لها فقط . واضافا ان قرار واشنطون فى هذا الشأن سوف يتوقف على جوابه .

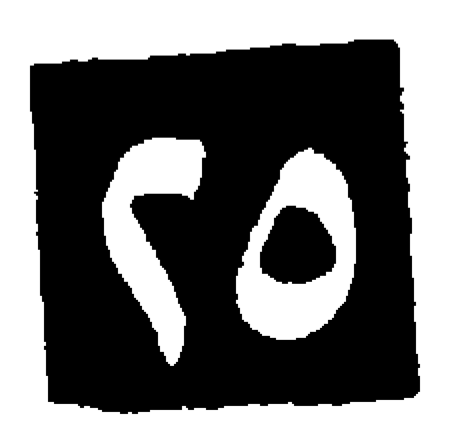
ثم نبها هومز الى أن الحكومة الأمريكية لن توافق على سفر ديجول الا على اساس الزيارة . اما اذا تبين انه يفكر فى شىء آخر ، فعلى هومز أن يبلغ واشنطون على الفور .

واضافا أن هومز يمكنه أن يوافق على الزيارة دون الرجوع الى واشنطون ، اذا تأكد انها مجرد زيارة .

بعد انتهاء المكالمة ، ابرق هومز الى الجنرال سير هنرى ميتلاند ولسون طالبا المزيد من المعلومات ، فجاءه الرد من الجزائر بعد

ساعات قليلة يطمئنه الى أن ديجول ينوى زيارة فرنسا فقط ، فهو لم يعرب عن أية نية فى الاستقرار هناك .

وعلى أساس هذه المعلومات ، بعث هومز بموافقة القيادة العليا للحلفاء فى أوربا على زيارة ديجول . وهى زيارة سوف تطول اكثر بكثير مما أرادت لها قيادة الحلفاء أو حكومة واشنطون !



كان فون شولتتز واقفا وحده في الشرفة يفكر فيما قاله له بيير تيتنجيه بعد نزول الأخير من عنده ، عندما سمع الأوبرشت فون أونجر يناديه من خلفه في استعجال . ولكن حتى قبل ان يتمكن رئيس اركان حربه من أن يعلنه بقدوم من تبعه ، اندفع الى المكتب كالاعصار رجل يرتدى معطفا جلديا يغطيه الغبار .

صاح فون اونجر : جنرال فلدمارشال ــ اى المشير ــ مودل .

فاندهش شولتتز لسماع ذلك الاسم ولرؤية ذلك الرجل صاحب الابتسامة الصغيرة الساخرة التى يعرفها جيدا ، وسأل نفسه : « ترى ما الذى جاء بقائد مجموعة جيوش أوكرانيا الى مكتبه ؟ » .

ورد فالتر مودل على سؤال الذى لم يخرج من فمه قائلا وهو يهز عصا المارشالية فى يده انه جاء ليخلف فون كلوجه كقائد عام فى الغرب .

وأضاف أن أوامره هي : الصمود فى باريس وفى السين بأى ثمن .

واستطرد مودل قائلا فى نبرات تقطر غيظا أن مهمته بوجه عام هى اعادة النظام والقضاء على الفوضى فى هذه الجبهة الغربية ، وأضاف انه يبدو أنها مهمة ملحة بناء على ما رآه على الطريق من ميتز الى باريس . فقد شاهد كثيرا من الجنود الألمان المنسلخين عن وحداتهم يسيرون على ذلك الطريق ٠

وكان فون شولتتز يعرف ـ كما يعرف كل جندى آخر فى الجيش الألمانى ـ شهرة الجنرال فلدمارشال مودل ..

انه نازى متحمس . ورجل حديدى الارادة ، وذو شجاعة شخصية عظيمة . وهو أيضا شديد العنف وكثيرا ما يتخذ قرارات سريعة متهورة .

بعد أيام سوف يكتب عنه أحد ضباط مخابرات الحلفاء فى تقرير يقدمه الى القيادة العليا للحلفاء فى أوربا : « انه معروف بولائه لهتلر ، ولا يستهويه شيء أكثر من أن يطالب بالقيام بالمستحيل » .

وكان قدومه مفاجأة غير سارة لشولتتز الذى لم تكن لديه ثقة كبيرة فى حسن تقديره للامور ٠ كما انه كان واثقا من ان مودل لن يتردد فى منحه شرف « احراق أرض » باريس وراءه فهو ـ كما يعرف شولتتز ـ رجل تسيطر عليه « عقلية الجبهة الشرقية » .

غير أنه كان لقدومه حسنة مع ذلك ، فهو يتيح لشولتتز أن يؤجل تنفيذ أعمال التدمير التى أمر بها فون كلوجه ذلك الصباح . وقد قال لمودل ان التدمير سابق لأوانه وانه لن يؤدى فى الوقت الحاضر الا الى اثارة الاهالى المدنيين ، وانه فوق ذلك قد يعرقل استعداداته للدفاع عن المدينة .

فوافق مودل على ذلك وامره بالا يشرع فى تنفيذ اى اجراء فى هذا الصدد الى حين يتاح له مراجعة شئون قيادته الجديدة ٠

ولكن فرحة فون شولتتز بالمهلة التى كسبها كان مقدرا لها الا تطول . فبينما كان يرافق مودل الى السيارة التى سوف تقله الى مقر قيادته الجديدة ، التفت ذلك الرجل الصغير الحجم الطاغى الشخصية اليه وقال له :

ــ أن ما استغرق منا اربعين دقيقة فى « كوفل » سـوف يستغرق منا أربعين ساعة فى باريس ياشولتتز ، ولكن عندما ننتهى، سوف تكون هذه المدينة قد زالت ٠

وكانت كوفل مدينة صغيرة فى بولونيا ، كانت قوات مودل قد مسحتها من الوجود .

***

فى قصر « ماتينيون » الفخم الذى يتخذه رؤساء وزارات فرنسا مقرا لاقامتهم ، كان رجل يغمره الاحساس بالوحدة يستحم فى حوض استحمام من المرمر .

انه بيير لافال رئيس حكومة فيشى الفرنسية ، المتعاونة مع الالمان .

لقد خسر بيير لافال مقامرته الاخيرة . اخرج ادوار هريو رئيس مجلس نواب فرنسا الذى الغى الاحتلال الالمانى وجوده ، من الأسر النازى لكى يعقد ذلك المجلس الذى كان لافال ينـوى تسليمه سلطاته ــ وربما جلده أيضا ــ ولكن هاينريش هملر وزير داخلية هتلر طلب استعادة هربو ٠٠

والآن أصبح عالم لافال يتهاوى من حوله . ولم يبق أمامه الا شيء واحد فقط ، هو الهرب . وعند مدخل القصر تنتظره السيارة « الهوتشكيس » السوداء التابعة لفرق الصاعقة الألمانية التى سوف تحمله شمالا الى المانيا .

قبل ذلك ببضع دقائق ، وعلى ضوء شمعتين ، كان قد جلس الى المكتب الذى حكم منه فرنسا ، وافرغ ادراج ذلك المكتب ..
وبعد دقائق ســــوف يعقد رباط عنقه الأبيض ويلتقط قبعته وعصاه وينزل الى حجرة المكتب فى الدور الارضى ليصـــافح الاصدقاء الاوفياء القلائل الذين جاءوا لوداعه . فهنـــاك فى تلك الحجرة ذات السقف العالى التى تبدو فى ظل الشمعتين اللتين تضيئانها كأنها قاعة جنائزية ، تجمع عدد ممن نبقوا من اعضاء حزبه الذين تبعوه فى سياسة التعاون مع اعداء فرنسا .

على باب القصر . سوف يقبل ابنته جوزى مودعا ثم ينزل نحو السيارة المنتظرة .. لكنه سوف يعود ويقفز من الســـيارة ويصعد على عجل السلالم القليلة المؤدية الى باب القصر ، ليقبل مرة أخرى ابنته الوحيدة ..

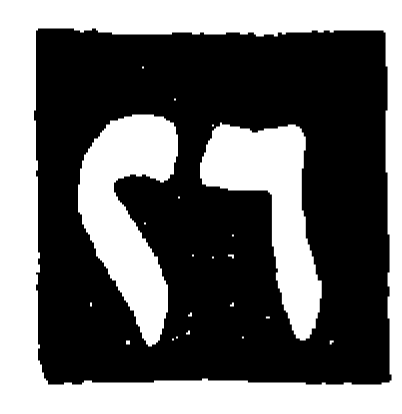
وهى لن تراه ثانية الا بعد نهاية الحرب .. عندما يجلس فى قفص الاتهام فى محكمة باريسية تحكم عليه بالاعدام .

* *

انطلقت السيارة « الهوتشكيس » الســـوداء من مدخل قصر « ماتينيون » واختفت فى الشوارع المظلمـــة وراء بوابته . وفى صوت حاد جاف انغلقت وراءها بوابة القصر الضخمة .

لقد اصبح « بيت فيشى » خاليا ، وانطوت مع انغلاق بوابتـه صفحة حزينة من تاريخ فرنسا ..

وفى ظلام المدينة المطفأة الانوار المحيطة بقصر « ماتينيون » .. كانت القـــوى التى سوف تقود فرنســـا الجديدة قد بدأت تتحرك ...



جمهور الصباح المبكر الذى كانت حركته قد بدأت تدب فى شارع « دى سيعر » بالقرب من محلات « بون مارشيـه » لم ير فيهما الا شابين عاشقين • فقد كادت جبهتاهما تتلامسان وهمـا ينحنيان فوق دراجتيهما الواقفتين ملتصقتين بينهما ، ويتبـادلان الحديث فى همس ••

وفى حنان المحبين ، جذبته الفتاة نحوها واخذت تمر بيديها فى شعره . بينما كانت تفعل ذلك نقلت أصـابع الفتى المدربة منفاخ دراجته الصغير فى سرعة فائقة الى دراجتها .

وعادت الفتاة فى هدوء الى بيتها فى شارع « سديو » وصعدت سلالم ثلاثة طوابق لتصل الى شقتها • وبعد ان احكمت اغـلاق الباب وراءها ، أخرجت من دولاب كتبها كتابا مجلدا بالجلـد الاحمر عن فن الرسم « الفلمنكى » ، وأخذت تقلب صفحاته الى أن وصلت الى صفحة تحتوى على صورة ملونة لرسـام مغمور يدعى « بروحل » . أمسكت بتلك الصفحة بين ابهامها وبنصرها وضغطت عليها ، وأخرجت قطعة من الورق الشفاف من تحت الصورة الملونة . ثم فكت قاعدة المنفاخ الصغير الذى نقله اليها صديقها وأدخلت أصبعها فى فتحته ، وسحبت من داخله قطعة ورق ثانية .

وفردت الفتاة الورقتين على مكتبها واخذت تعمل .

اسم الفتـــاة « جوســـلين » .. وكانت احدى فتـــاتين خصصتهما حركة المقاومة السرية فى باريس لاعمال الشفرة ...

على الورقة التى كانت مخبأة فى كتابها توجد معلـومات كان الجستابو مستعدا لان يدفع فيها ثمنا غاليا جدا سواء بالدم أو بالذهب ، فتلك الورقة كانت تحتوى على مفتاح الشـفرة التى تستخدمها قيادة أنصار ديجول فى فرنسا .

كانت « جوسلين » احدى حلقات سلسلة معقدة من اعضاء حركة المقاومة ، يتألف منها الجهاز الذى يتولى نقـــل جميـع الرسائل من باريس الى قيادة الفرنسيين الاحرار فى لنـدن . كان لدى حركة المقاومة ثلاثة اجهزة ارسال لاسلكية فى باريس وثلاثة أخرى فى ضواحيها . وكانت أجهزة باريس تعمـــل فى الايام الزوجية وأجهزة الضواحى تعمل فى الايام الفردية .

وبعد ظهر هذا اليوم ، بعد أن تفرغ « جوسلين » من صياغة الرسالة التى تلقتها قرب محلات « بون مارشيه » بالشفـرة . فانها سوف تسلمها الى رجل آخر يركب دراجـة فى شـــارع فولتير ، وسيقوم هو بنقلها الى غرفة تقع فى بدروم المبنى رقم ٨ بشارع فانو . هناك فى فجوة فى الحائط تحتها مرحاض علاه الصدأ كان يوجد احد اجهزة ارسال باريس الثلاثة .

كان « ايريال » الجهاز يمد فى المجارى عند الارسال . وبينما كان أحد الرجال يتولى عملية الارسال ، كان زميل له يقف ومعه قنبلتان يدويتان على رأس السلالم المؤدية الى البدروم للحراسة .. ومن حيث المبدأ ، لم تكن الاذاعات تستمر لاكثر من عشرين دقيقة خوفا من ان يهتدى الى مكانها رجال الجستـــابو الـذين كانوا يطوفون شوارع باريس بسيارات نقل تحمل أجهزة تحديد مصادر الاذاعات .

وكانت « جوسلين » قد تلقت تدريبا طويلا على عدم قراءة الرسائل التى تصوغها بالشفرة ، ولذلك فقد تجاهلت الرسالة التى فردت أمامها . كانت تلك الرسالة هى أول تقرير يبعث به شابان ـ دلماس الى لندن بعد رجوعه الى باريس . ولكن عندما وصلت جوسلين الى نهاية الرسالة ، تنبهت حواسها على الرغم منها ، ووجدت نفسها تخالف التعليمات الصادرة اليها وتقرأ الرسالة بأكملها .

كان نص تلك الرسالة :

« الموقف فى باريس حرج للغاية . الاضرابات تشمل رجال الشرطة والسكك الحديدية والبريد ويوجد اتجاه متزايد الى حدوث اضراب شامل . وتوفرت جميع الظروف اللازمة لاشعال الثورة . الحوادث المحدودة التى تقع بلا تدبير سابق أو نتيجة لاستفزازات العدو أو حتى بسبب بعض جماعات المقاومة المتعجلة سوف تكون كافية لاشعال أخطر الاشتباكات التى سوف يرد عليها الالمان بأعمال انتقام دموية يبدو أنهم اتخذوا قرارات بشانها فعلا ، وجمعوا الادوات اللازمة لها . الوضع يزداد سوءا مع شلل الخدمات العامة : لا يوجد غاز ؛ الكهرباء لمدة ساعة ونصف ساعة يوميا ، المياه مقطوعة فى بعض الاحياء . نقص التموين بلغ حد الكارثة . من الضرورى أن تتوسطوا لدى الحلفاء طالبين الاحتلال السريع لباريس . نبهوا السكان رسميا فى أدق وأوضح عبارة ممكنة من خلال محطة الاذاعة البريطانية الى ضرورة تجنب وارسو جديدة » .

ـ « وارسو ! »

قالتها جوسلين لنفسها وهى تتساءل فى أسى :

ـ هل حقا وصل الامر الى هذا الحد ، واصبحت باريس مهددة بمثل الدمار الشامل الذى لحق بالعاصمة البولونية !..

النذر التى تبرر التوقعات المتشائمة لشابان ــ دلماس كانت واضحة فى كل مكان فى هذا الصباح المشمس .. صباح يوم الجمعة ١٨ اغسطس سنة ١٩٤٤ ..

وزراء حكومة فيشى هربوا ، تاركين وراءهم فراغا سياسيا صارخا ، السلطة المدنية التى تبقت كانت قد تعفنت وأصبحت تنتظر ضربة أول يد جريئة لتتهاوى . الصحافة المتعاونة مع الالمان اختفت . السكك الحديدية اضربت وكذلك « المتروهات » والبريد والبرق والشرطة وحتى بنك فرنسا . وقبل كل شىء .. المدينة نفسها كانت مستعدة للتمرد .

فقد أحس سكان باريس الذين أوجعهم ذل اربع سنوات من الاحتلال ، والذين جاءوا ، والذين ملاوا الشوارع من غير ان تكون هناك سلطة مدنية تكبح جماحهم .. أحسوا أن ساعة الثأر قد دنت .

كل شىء كان قد اصبح مهيأ فعلا للثورة التى كانت التعليمات الصادرة لشابان ــ دلماس تقضى بمنع قيامها . لم يعد يلزم لاشعالها الا شىء واحد ، هو صوت قوى يطلق صيحة الحرب « الى الاستحكامات » . وكان الحزب الشيوعى قد اصبح مستعدا الآن لتقديم ذلك الصوت القوى .

* *

كان ميدان « بيتى كلامار » الذى يقع على بعد سبعة أميال جنوب كاتدرائية نوتردام خاليا تماما عند الظهر ، الا من شخص واحد انحنى يصلح عطلا فى دراجته تحت لوحة اعلانات قديمة ..

جاء « الكولونيل رول » على دراجته من طريق باريس الى ذلك الميدان وبعد أن دار حول جزيرة المرور التى تتوسطه فى

كسل يصل الى صاحب الدراجة المعطلة ، وسأله اذا كان يستطيع أن يقدم له اية مساعدة . وتبادل الرجلان بضع كلمات، نهض بعدها صاحب الدراجة المعطلة وركب دراجته ومضى .. وتبعه رول على دراجته ..

كانت تلك هى المرة السادسة خلال ثلاث ساعات التى بعيد فيها عامل المناجم ريمون بوكيه تمثيل نفس المشهد القصير الذى انتهى منه الآن تحت لوحة الاعلانات القديمة . وفى كل مرة كان يقود مارا مختلفا يعرض عليه مساعدته الى نفس المكان الذى يقود رول اليه الآن ، وهو بيت حقير سقفه من الصفيح فى نهاية شارع الالزاس فى ضاحية كلامار .

هناك وراء قطعة أرض صغيرة مزروعة بالخضروات يحيط بها سور خشبى متداع ، وداخل غرفة لايزيد حجمها عن زنزانة راهب ، جلس الأعضاء الخمسة للجنة باريس للتحرير ، وقد التصقت قمصانهم التى بللها حر الغرفة الصغيرة ببعضها .

واتخذ « أندريه تولليه » الشيوعى العصبى النحيل الذى يرأس اللجنة اول قراراته لذلك اليوم ، وهو قرار بمنع التدخين فى ذلك الاجتماع . فقد أراد أن يطمئن الى أنه لن يصدر عن اجتماعهم ظهر ذلك اليوم أى شىء يمكن أن يكشف عن مكان انعقاده .

انه لا يستطيع أن يغامر بحدوث أى شىء يمكن ان يعطل هذا الاجتماع . لقد دعا هؤلاء الرجال الى هذا البيت المهجور لاتخاذ أخطر قرار طولبت لجنته بأن تتخذه ، وهو قرار كان « تولليه » يدرك جيدا أنه يمكن أن يؤدى الى تحطيم أجمل مدينة فى العالم ، وأن يكلف الافا عديدة من سكانها أرواحهم .

فى ذلك الكوخ الآيل للسقوط الواقع فى نهـاية شارع ريفى طلب « اندريه تولليه » من الاربعة الآخرين أن يوافقـوا على نشوب ثورة مسلحة فى شوارع باريس .

كان « توللبه » قد تلقى أمرا من رؤسائه فى الحزب منذ ثمان وأربعين ساعة ، باستصدار ذلك القرار .. وكان ينبغى عليـه ألا يغادر ذلك الاجتماع الا بعد ان يحصل على الموافقة عليه لكى تكتسب الحركة التى سوف يبدأونها فى الغد ـ أيا كان ثمنها ـ الشرعية السياسية .

حتى الملصقات التى تنادى المدينة الى حمل السلاح كان قد تم طبعها وتخزينها بعناية فى أحد مصانع « مون روج » .

وكانت خطة الحزب بسيطة . كان واثقا من ان الثورة التى يدبرها لا يمكن وقفها اذا بدات . وفى هذا الاجتمـاع السرى للجنة له السيطرة عليها ، سوف يحصل على قدر من الغطـاء السياسى يبرر أعماله . بعد ذلك يبدأ الثورة وهو واثق من انه سينضم اليه فيها الاف من اعضاء حـركة المقاومة الوطنيين غير الشيوعيين ، الذين يتحرقون لهفة لمقاتلة الالمان . وعندما يعلم الديجوليون بالقرار الذى تم اتخاذه ، ستكون الثورة قد أصبحت أمرا واقعا . وستكون قد مضت فى طريقها بقيادة شيوعية .

لم يبق الا شىء أساسى واحد لنجاح الخطة ، هو أن يظـل شابان ـ دلماس والكسندر بارودى وبقية زعمـاء الديجوليين الكبار يجهلون كل شىء عنها الى أن يكـون الوقت الذى يمكنهم فيه أن يوقفوا الثورة قد فات .

بعد ساعتين ، تسلل الرجال الخمسة من الكوخ الصـغير واحدا بعد الآخر ، وكان توللبه آخر المنصرفين .. كان ممتلئـا عزما وتصميما وتغمر نفسه السعادة .. لقد انتصر .

سيحقق هو والحزب الذى يمثله ثورتهم ، وهى الثورة التى طلب شارل ديجول والحلفاء منع قيامها . وسوف نبدأ بغير علم شـــابان ــ دلماس وبقيـــة قادة الديجوليين فى صـــباح اليوم التالى .

* *

فى فناء سجن « فريسن » رأى لويس أرمان الحراس يتقدمون من مجموعة الواحدوالعشرين سجينا التى كان هو أحد أفرادها، وينطقون كلمة المانية واحدة هى : « راوس » أى « الى الخارج » .. فخرج من بوابة السجن رجلا حرا . وقد كان آخر المساجين السياسيين الخمسمائة والاثنين والثلاثين الذين تم الافراج عنهم هذا الصباح .

ومن نافذته المغطاة بالقضبانالحديدية . رآه فيلى فاجنيخت ــ الجندى الالمانى المسجون بسبب ضربه لاحد الضباط ــ وهو يخرج .. مثلما كان قد رأى قافلة المســـاجين المرحلين وهى تغادر السجن منذ ثلاثة أيام .

وسأل فيلى نفسه فى مرارة :

ــ اليس هناك حد لغباء تصرفات الجيش الألمانى ؟!

لقد رأى بعينيه جميع المساجين الفرنسيين يغادرون السجن بينما بقى هو ــ الالمانى ــ فيه .. فهـــل جن الالمان حتى لم يعودوا يسجنون فى فرنسا غير مواطنيهم الالمان ؟!

* *

فى محطة السكة الحديد بمدينةنانسى ، وقفت مارى ــ هيلين ليفوشو تراقب القطار الذى توقف فيها ، والذى يحمل زوجهـا الى أحد معسكرات الاعتقال فى المانيا فىاحدى عربات نقلالمواشى

التى يجرها .. وكانت قد تابعت ذلك القطـــار على دراجتها مسافة ١٨٣ ميلا ــ أى ثلاثة أرباع المسافة الى المانيا ــ خـــلال يومين ونصف يوم دون نوم أو راحة .

واعترفت بينها وبين نفسها فى حزن شديد بأن هذه هى نهاية رحلتها .. فهى لم تعد قادرة على مواصلة السير .

كانت الشمس تحرق أسقف الصفيح التى تغطى العـربات ، مثلما كانت تحرقها يوم عيد صعود السيدة العذراء .

وكانت مارى ــ هيلين تستطيع أن تسمـــع اصـوات الرجال الذين فى داخلها وهى تستجدى فى ضعف ويأس جرعة مـاء . ومن حين لآخر كانت تصل اليها أصوات أشـــــد هولا ، هى الصرخات الحادة المجنونة التى يطلقها سجين أصيب بانهيـــار عصبى .

وكان كل صوت يصدر عن عربات المواشى يجـــدد عذابها ويزيده وهى واقفة تحدق فيها فى يأس .

واخيرا شاهدت عددا من الحراس ومن عمـال السكة الحديد يجرون بجوار القافلة .. وبعد قليل رأت القطــــار يتأهب للسير من جديد .

فقد افلحت جهود القنصل السويدى العام نوردلنج ، وصاحبه « بوبى » بندر فى انقاذ المساجين الذين بقوا فى باريس ، ولكنها عجزت عن منع هذه القافلة الاخيرة من المســاجين المرحلين من مواصلة السير . لقد رفض الجستابو رفضـا قاطعا ان يتنـازل عن تلك الحمولة من « البؤس الانسانى » .

وسمعت مارى ــ هيلين مرة ثانية انغــــام النشيد الوطنى الفرنسى « المارسيليز » تنبعث من العربات بينما القطار يندفع

خارجا من المحطة ، مثلما سبق لها أن سمعتها عند خروج القطار من محطة « بانتان » .

وظلت مارى ـ هيلين واقفة بلا حراك فى مكانهـــا ، الى ان اختفى القطار عن نظرها تماما ، ومات آخر صدى لصوته المزعج فى المحطة الخالية .

وعندما استدارت لتخرج من المحطة ، كان القطـــار قد بدأ يصعد تلال الالزاس المغطاة بكروم العنب متجها نحو ستراسبورج ثم الراين ..

بعد ذلك لن يتوقف القطار الا لينزل ركابه الذين هبط عددهم فى اثناء الرحلة الى ٢٤٥٣ عند أبواب معسكر رافنسبوك وبوخنفالد .

من اولئك الرجال والنساء الـ ٢٤٥٣ ، لن يعود الى فرنســا بعد ذلك الا أقل من ٣٠٠ ، هم كل من تبقوا منهم أحياء !

* *

ظل الرجل الواقف فى الشرفة ينظر الى الفتــاة الى أن رآها تختفى على دراجتها وراء ناصية شارع « مونمارتر » . عندئذ أخرج سيجارة من جيبه واشعلها وجذب منها نفسا فى ارتياح ، وقال « ايف بابيه » ذو الاربعة والثلاثين عاما لنفسه :

ـ هذه المرة ، اعتقد أننا سننجح .

كان « ايف بابيه » هو رئيس مجموعة الديجوليين بين أعضاء حركة المقـــاومة السرية فى قوة شرطـــة باريس ، وهى احدى المجموعات الثلاث التى تكافح من أجل الســيطرة على العشرين الف شرطى الذين تتألف منهم تلك القوة ، والذين أراد الكولونيل الشيوعى « رول » ان يضمن امتثالهم لاوامره .

وكانت الفتاة « سوزان » التى انطلقت على دراجتها القديمة بينما تابعها بنظره هى مندوبة الاتصال الملحقة به .

وهى تحمل معها الآن وهى فى طريقها الى « بورت دى شانيون » ثلاثة ظروف مخبأة داخل بطاقة حقيبة اليد الكبيرة التى علقتها بكتفها . وتحتوى على ثلاث رسائل متشابهة موجهة لكل من المجموعات الثلاث داخل حركة المقاومة السرية فى قوة الشرطة .

وكان بابيه يعرف أن تلك الرسائل هى أخطر الرسائل التى كلف بارسالها فى حياته .

كانت الساعة تقترب من الثامنة .. وبعد ساعة يبدأ منع التجول الذى فرضه الحاكم العسكرى لمنطقة باريس الكبرى . وهكذا فان سوزان أمامها الوقت الكافى بالضبط لايصال الظروف الثلاثة الى المقهى الذى يستخدمه « ايف بابيه » كمكتب بريد ، وللعودة .

وابتسم « ايف بابيه » فى سخرية وهو يقول فى نفسه أن نظام منع التجول الذى فرضه الجنرال « فون شولتتز » سوف يخدم فى هذه الليلة قضية الجنرال ديجول !..

فهذا النظام سوف يمنع أحد الظروف الثلاثة التى تحملها سوزان من الوصول الى هدفه قبل الصباح ..

وهذا هو ما يريده « بابيه » بالضبط !

الرسالة التى لن تصل الى الجهة المرسلة اليها فى هذه الليلة ، موجهة الى اكبر وأقوى الكتل فى حركة المقاومة فى قوة الشرطة ، وهى الكتلة التى يسيطر عليها الحزب الشيوعى .

وفى هذه الليلة سيكون الشيوعيون أنفسهم هم ضحايا ولعهم الخاص المبالغ فيه باجراءات الامن . فعلى عكس المجموعتين الاخريين ، فان الرسائل الموجهة الى الشيوعيين كان ينبغى أن تمر بمستودعين للرسائل لا مستودع واحد قبل ان تصل الى هدفها . وعلى هذا فان الرسالة التى تحملها « سوزان » اليهم سوف تقضى الليلة مجمدة فى صندوق البريد الثانى الخاص بهم .

* * *

أحست « سوزان » بسرعة دراجتها تتضاءل ، فانحنت فوق يدها وعرفت السبب .. لقد كانت عجلتها الامامية تفقد هواءها .. وبعد بضع دقائق نامت تماما ، بينما لاتزال « سوزان » على بعد نصف ساعة من المكان الذى تتجه اليه . وحاولت وهى تلعن الحظ السيىء ان تنفخ العجلة . ولكن الهواء كان يخرج من اطارها الممزق بنفس السرعة التى كانت تدخله بها .

وسمعت خلفها صوت عجلات أخرى تتوقف ، فتلفتت لتجد احدى سيارات هيئة أركان الحرب الالمانية تقف بجانبها وسائقها يقفز منها فى حركة سريعة وينحنى فوقها . وعرض الضابط الالمانى الشاب مساعدته فى لغة فرنسية سليمة تماما على الفتاة الباريسية الحسناء ، فناولته « سوزان » المنفاخ ولكن محاولاته مع العجلة لم تكن أكثر توفيقا من محاولاتها .. فعرض عليها شيئا آخر ، هو ان يوصلها بسيارته الى المكان الذى تود الذهاب اليه ..

ترددت « سوزان » لحظة خاطفة .. ثم قبلت دعوته وصعدت الى السيارة بجانبه ، ووضعت على ركبتيها حقيبة يدها التى كانت تحتوى على ما هو بمثابة اعلان حرب على محتلى باريس الالمان !!

كان الكسندر بارودى ، الرئيس السياسى للديجوليين فى حركة المقاومة فى فرنسا ، قد ابلغ بواسطة واحد من أعضاء لجنة « اندريه تولليه » يتعاون سرا معه ، بأن الشيوعيين سوف يبدأون ثورتهم المسلحة فى اليوم التالى ، فاتخذ بارودى الذى فوجىء بهذا النبأ الخطير ، قرارا جريئا .

اذا كان الشيوعيون قد قرروا أن يتحركوا ، فسوف يتحرك هو أيضا .. ولكن حركته ستكون أسرع من حركتهم . سوف يحرمهم من أهم مبنى عام فى باريس ، وهو المبنى الذى يكاد يكون مدينة داخل المدينة . سوف يحرمهم من مبنى رئاسة الشرطة .

وكانت الرسائل التى تحملها سوزان فى حقيبتها تتضمن تعليمات الى رجال شرطة باريس بأن يتجمعوا فى اليوم التالى ، التاسع عشر من أغسطس ، فى الساعة السابعة صباحا ، فى الشوارع المحيطة بتلك القلعة الهائلة التى لا تبعد الا بضع خطوات عن كاتدرائية نوتردام . ومن هناك وبقيادة « ايف بابيه » سوف يستولون على مبنى رئاسة الشرطة .

ابتسمت سوزان فى فتور للضابط الالمانى وهى تنزل من سيارته واغلقت بابها وراءها ، ودخلت احد المقاهى ، وفى مراحيض المقهى أخرجت الظروف الثلاثة من حقيبة يدها ، بعد بضع دقائق سلمت تلك الظروف الى ابن صاحب المقهى من تحت الصينية الخشبية المستديرة التى حمل اليها عليها كوب عصير الليمون الصناعى .

وكانت الساعة حينئذ هى الثالثة والنصف .

فى الغد ، وتحت احجار كاتدرائية نوتردام التى يبلغ عمرها ثمانمائة سنة ، سوف يلتقى رجال شرطة باريس فى أول موعد مع الثورة المسلحة التى حضر لها الشيوعيون بكل دقة وعناية .. ولكن الحزب الشيوعى لن يحضر ذلك اللقاء !

* * *

كانت جبال الاطلس فى مراكش تبدو قرمزية اللون تحت أشعة الشمس الغاربة للكابتن « النقيب » كلودجى .. من داخل الطائرة من طراز « لوكهيد لودستار» التى تحمل اسم « فرانس » والتى كانت تحلق على ارتفاع عشرة الاف قدم فوقها ..

أمام كلود جى كان يجلس الجنرال شارل ديجول واضعا سيجارا فى فمه ، وغارقا فى أفكاره ..

وكان « جى » ـ ياور ديجول ـ يعرف أن الجنرال يكره السفر بالطائرات وانه نادرا ما يتكلم فى اثناء الرحلات الجوية ، ولذلك فهو لم يندهش للصمت الذى لزمه ديجول منذ غادرت الطائرة الجزائر قبيل ثلاث ساعات ، لتقطع أولى مراحل الرحلة التى ربما كانت أهم رحلة جوية قام بها ديجول منذ طار من فرنسا فى شهر يونيو سنة ١٩٤٠ .

وكانت اولى الحوادث المزعجة التى كان مقدرا لها ان تصاحب تلك الرحلة قد وقعت فى الجزائر قبل ان يغادرها ديجول ، واخرت سفره الى الدار البيضاء عدة ساعات .

فالقيادة العسكرية الامريكية فى الجزائر ، كانت تخشى الا تستطيع طائرة ديجول « اللودستار » هذه أن تقطع المسافة الطويلة بين جبل طارق وشربورج فى فرنسا ، وألا يتسع خزانها للوقود الذى تتطلبه تلك المسافة ، ولذلك وضعت طائرة من طراز « ب ـ ١٧ » بملاحيها الامريكيين تحت تصرفه .

وقد قبل ديجول هذا العرض على مضض ودون أن يكون راضيا عنه .. ولكن عندما هبطت الطائرة الامريكية فى مطار « ميزون بلانش » فى الجزائرلتأخذ ديجول ، تخطت ممر الهبوط ومزقت جزءا من بطنها .

لم يصدق ديجول أن هذا الحادث قد وقع قضاء وقدرا ؟ وانما فسره على أنه جزء من خطة أمريكية موضوعة تستهدف تأخير عودته الى فرنسا ، وقد نظر الى الطائرة المعطلة وقال فى سخرية لمن كانوا يحيطون به فى المطار :

ـ هل تظنون أن الحب والمودة هما اللذان دفعاهم الى عرض طائراتهم على ؟!

ولكن « جى » كان مطمئنا الى أن هذه المشكلة قد انتهت .. فطائرة أمريكية أخرى من طراز « ب ـ ١٧ » أيضا كانت سوف تقابلهم فى الدار البيضاء .

أما الرجل الذى كان جالسا أمامه ، فقد انهمك فى التفكير فى مسائل أكبر وأكثر تعقيدا .. بالنسبة لديجول ، كان هذا هو بداية نهاية الطريق الطويل الذى كان قد بدأ بالنداء الذى وجهه يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٤٠ .

فى نهاية الطريق تقع باريس ، المدينة التى كان ديجول قد غادرها كضابط مغمور برتبة « جنرال دى بريجاد » ـ أى عميد ـ منذ أربع سنوات .

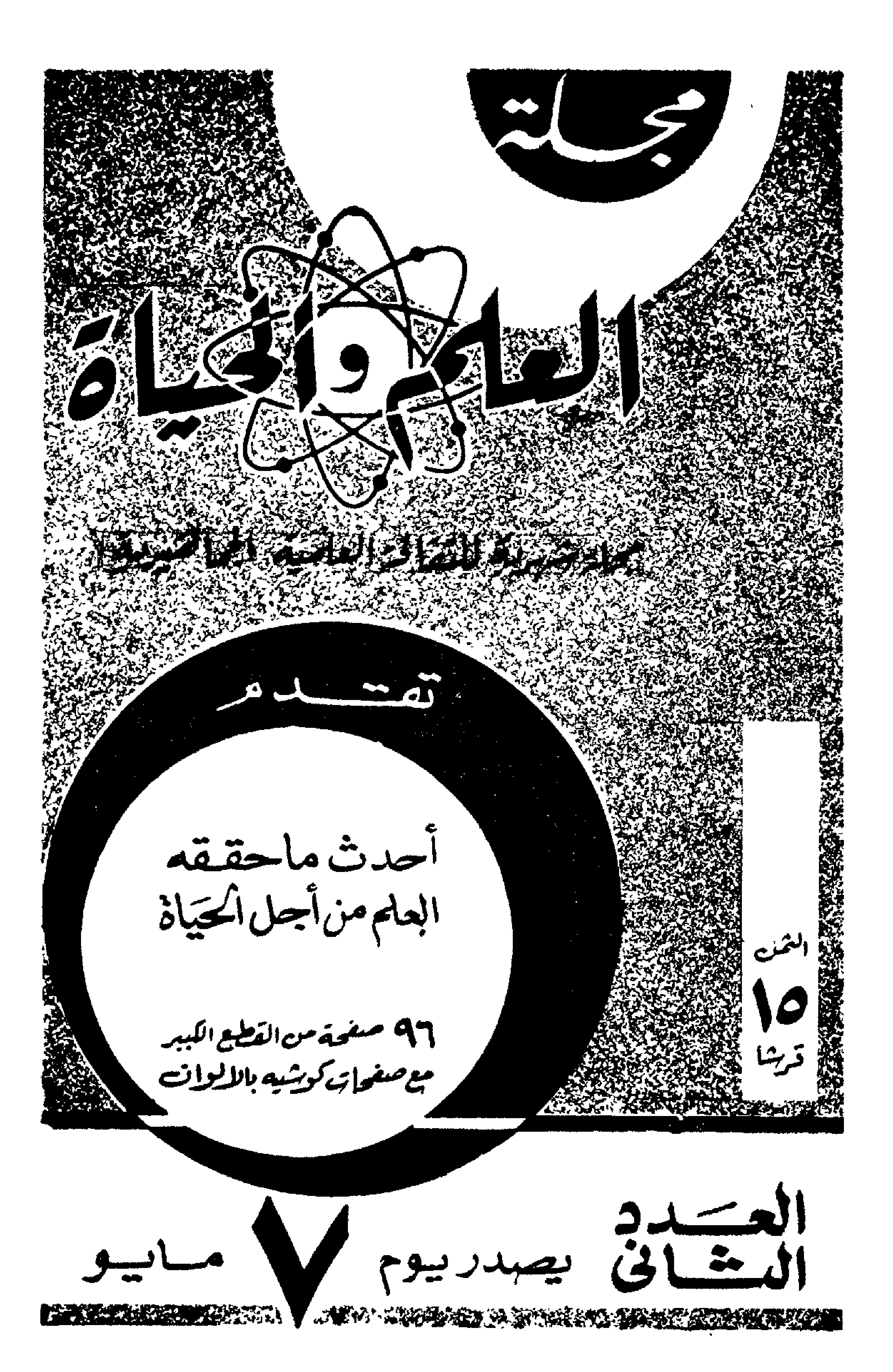
من أجل أن يصل اليها ، كان ديجول مستعدا لان يتحدى حلفاءه ،ولان يخنق خصومه السياسيين ، وحتى لان يخاطر بحياته ..

ففيها ، وفيها فقط سوف يجد السؤال الذى انطوت عليه حركته الجريئة قبل أربعة أعوام ، الاجابة عليه .

سوف يبدو غريبا بعد ذلك الا يكون ديجول قد عرف سلفا ما سوف تكون عليه الاجابة .

أما « جى » فقد كان يعرف أثناء تلك الرحلة أن ذهن ديجول لا يزال نهبا للشكوك والتساؤل . ما كان يشغله قبل كل شيء آخر هو انه لم يعرف بعد ما اذا كان شعب فرنسا مستعدا لقبوله كزعيم له . وكان ديجول يدرك أن هناك مكانا واحدا فقط يمكنه أن يعرف فيه الرد على هذا السؤال ، وهو شوارع باريس . .

فى تلك الشوارع ، وبعد اسبوع واحد فقط .. كان راكب طائرة اللودستار (فرانس) الواجم ، على موعد مع التاريخ .



العدد الثانى يصدر يوم ٧ مايو



لاشكّ
أن الفارق كبير
بين ماكينات
القرن ال
١٥
وبين ما تجده
من أحدث
آلات الطباعة فى
شركة الإعلانات الشرقية
إحدى شركات مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر


طريق
النجاح
FAIRS IN GERMANY



ونفس الشهرة تستطيع أن تحققها

لسلعتك

بالإعلان عنها فى

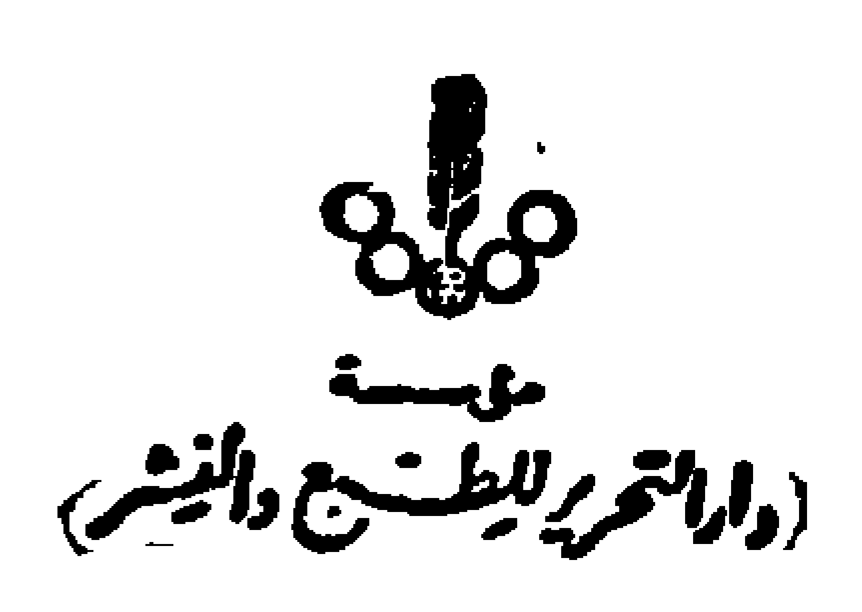
السينما

صاحبة الامتياز :

شركة الإعلانات المصرية

القاهرة : ٢٤ شارع زكريا أحمد - ت ٧٦٧٠٠

الأسكندرية : ١ش الدكتور احمد عبد السلام - ت ٢٧٣٦٦


مؤسسة
(دار التحرير للطبع والنشر)

هـذا الكتاب..

أصدر هتلر أمراً إلى قواده بتدمير باريس ـ أجمل عواصم الدنيا ـ قبل أن تنسحب جيوش الاحتلال الألمانية منها وتدخلها قوات الحلفاء ..

وجاء فى ذلك الأمر العسكرى الرهيب :

« إن باريس يجب ألا تسقط فى يد العدو .. ولكن إذا حدث ذلك ، فيجب ألا يجد العدو فيها شيئا غير أكوام من الحطام » !

لكن القدر تدخل لينقذ باريس بما يشبه المعجزة !!

● كيف نجت باريس من المصير الكئيب الذى أعده لها الطاغية النازى ؟!

● كيف عاشت الأيام العصيبة التى كانت تنتظر خلالها أن يحل بها الدمار الشامل ؟!

● كيف استطاعت أن تقوم بثورة مسلحة ضد قوات الاحتلال فى الوقت الذى كانت فيه تلك القوات تستعد لتحويلها بأكملها إلى أنقاض ؟!

● ما هو الرد الذى تلقاه هتلر من كبير قواده عندما أراد أن يتأكد من أنه قد بدأ بالفعل تنفيذ الأمر الذى كان قد أصدره بعدم ترك باريس للحلفاء إلا بعد أن تكون قد التهمتها النيران ، فسأله ـ هل باريس تحترق ؟!

« عميد الإمام »



